

# حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية  
www.hiramagazine.com

العدد: ٢٤ / السنة الثامنة / (يناير - فبراير) ٢٠١٣  
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

## النور المحمدي

بنور محمد ﷺ تلاًلَ العالم وأضاء...  
أما صوته... فما من أذن وعته،  
إلاَّ ودبَّت في صاحبها الحياة...  
وها نحن اليوم،  
على عتبات الموت واقفون...  
لعلَّ بعض أنفاسه ﷺ تَمَسُّنا،  
فتبعث فينا إرادة "الإحياء" من جديد...  
\* \* \*

# محل



مصر.. ومصير الأمة المرتقب



"إننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً"



الدعاء





العدد: ٣٤

السنة الثامنة

(يناير - فبراير) ٢٠١٣

لم تقف "حراء" يوماً ما، عند مواطن فكرية معينة لا تتجاوزها... فقد جعلت من الافتتاح على الساحات الفكرية بتنوعها واختلاف توجهاتها، قضية جوهرية معتمدة على إرساء خطها الفكري والثقافي في العالم، وهو دليل احترام المجلة لعقول قرائها وتنوع ثقافتهم واهتماماتهم. فهذا العدد من "حراء"، يمثل خير تمثيل مصداق ما نقوله ونؤمن به؛ فهو طافح بقمم فكرية عالية المستوى، وامتدادات ثقافية في شتى الاتجاهات تتنوع شكلاً ومضموناً.

فالمقال الرئيس لـ "فتح الله كولن" الذي يتحدث من خلاله عن فلسفة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، إنما هو صرخة استغاثة تنبئ عن العجز والفقر الإنسانيين، وعن افتقار الأفلام والأفكار مهما بلغت من القوة والسمو إلى الاستمداد من قلم القدرة الأعظم الذي خطَّ سطور السموات، وأشر موازين العدل والحق والخير والجمال... فمهما أبدعت هذه الأفلام فإنها تظل تنو إلى قلم القدرة المطلقة، وتستمد منه طاقات إبداع ما تسطره من فكر، وتُنشئه من ثقافة وعلم.

أما "القول الثقيل" والمسؤولية العظمى التي أشفقت الأرض والسماء والجبال من حملها وحملها الإنسان، فإنها تتجلى واضحة من خلال مقال "أحمد عبادي" الموسوم "إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً".

وللنورسي -رحمه الله- نصيب في هذا العدد، حيث يكتب "إدريس مقبول" عن "العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي" فيقول: "ولما تعددت مراتب الوجود وطبقاته، حتى كان الوجود الحسي أدناها، ولا يمثل شيئاً أمام عظم الوجود عامة"... إلى أن يقول: "لقد أبان النورسي -رحمه الله- أن منهج التربية في القرآن كما يعلي من قيمة العقل... فإنه في مسيس الحاجة إلى نفحة الإيمان لتحفظه من المهالك وتجعله على أقوم المسالك".

و"الشاهد البوشيخي" بقلمه العلمي الرصين، يكتب عن "فقه واقع الأمة" فيقول حفظه الله: "أجل، إن مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي والحضاري إلا بعد الاهتمام في المنهج إلى التي هي أقوم".

وفي الأنشطة الثقافية التي أقامتها مجلة حراء في بلدان مختلفة، نقرأ لـ "محمد باباعمي" "مصر.. ومصير الأمة المرتقب، من جمال حمدان إلى فتح الله كولن"، فيورد كلاماً لفتح الله كولن يقول فيه: "الشرط الأساس والسبب الرئيس هو أن لا تخلو الساحة من شجعان مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر مع الحفاظ على الجوهر اللب". ويجدر في خاتمة هذا الاستعراض لمواد هذا العدد، أن ننوه بالقصص والشعر في ثنايا هذا العدد وهو ما يشكل واحة ممتعة ومريحة للقراء.





# المحتويات

٢	الدعاء / فتح الله كولن (المقال الرئيس)
٥	القلب شاطئ أمواج الماوراء / حراء (ألوان وظلال)
٦	من جمال الإسلام / د. عبد الله بن صالح العريني (قصة)
٩	التربية البيئية في ضوء توجيهات التربية الإسلامية / فيصل ذيب (تربية)
١٢	الكون شعر منظوم / حراء (ألوان وظلال)
١٣	"إننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً" / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)
١٦	عالم الطفولة / حراء (ألوان وظلال)
١٧	الهجرة.. نقطة انطلاق الأمة / د. عبد الوهاب بوخلخال (قضايا فكرية)
٢٢	من حقوق الحيوان في الإسلام / د. عبد الواحد بوشداق (قضايا فكرية)
٢٦	مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر / د. محمد سالم سعد الله (قضايا فكرية)
٣٠	العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي / د. إدريس مقبول (قضايا فكرية)
٣٥	الهدهد.. الطائر الذكي / أ.د. عرفان يلماز (علوم)
٣٩	الجندي الصغير / محمد قاسم الهندي (قصة)
٤٢	الجزري.. اختراعاته العلمية وتطبيقاته الميكانيكية / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)
٤٦	فقه واقع الأمة - ٢.. دراسة في الشروط والعوائق / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)
٥٠	بشائر عالم جديد / حراء (ألوان وظلال)
٥١	جمال الفكر / ليلى السبيعي (شعر)
٥٢	التلسكوبات.. عيون على السماء / محمد هاشم البشير (علوم)
٥٥	مصر.. ومصير الأمة المرتقب / د. محمد باباعمي (أنشطة ثقافية)
٦٠	"فلسفة البناء الحضاري" بين يدي "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن" / طه كوزي (أنشطة ثقافية)
٦٣	اليعسوب.. وتقنية طائرات الهليكوبتر / نور الدين صواش (مخططات علمية)





# الدعاء

آمالنا وخشيتنا - في كل حين - وعزمنا وقرارنا أمارات من أمارات ذلك القدر، ونعد دعواتنا القولية والفعلية والحالية وسيلة من وسائل هذا القدر في مستوى الشرط العادي، لأننا نعلم من بيان النبي الصادق المصدوق ﷺ أن النتيجة التي يحصل عليها كل واحد ستتحقق، بمقياس كبير، حسب سلوكه وأعماله. غير أنه ليس من الصحيح عند التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، أن نقدم رغباتنا ومطالبنا، ونربط أدعيتنا بها، بل الصحيح هو أن نتوجه إلى الحق تعالى، ونعرض عليه حالنا بنفس العبودية، وبشعور من التواضع والفناء، وبلسان الفقر والعجز.

## الدعاء تعبير عن الثقة بالله

والحقيقة أننا بأدعيتنا نظهر ثقتنا واعتمادنا وتوطيننا لربنا، وبأنه قادر على كل شيء، ويجب أن نتوجه أدعيتنا إلى هذا، أكثر من توجهها لطلب تحقيق رغباتنا الدنيوية. ونصل أحياناً في الدعاء إلى نقطة نسكت فيها ونصمت، ونكل كل شيء إليه

الدعاء نداء وتضرع، وتوجه من الصغير إلى الكبير، ومن الأسفل إلى الأعلى، ولهفة من الأرض ومن سكان الأرض نحو ما وراء السماوات، وطلب ورغبة وطرح لما في الصدور من آلام. والداعي يشعر بضآلته أولاً، وبعظمة صاحب الباب الذي يتوجه إليه ثانياً، لذا يكون متواضعاً جداً. وعندما يرفع يديه بالدعاء مؤمناً بالاستجابة، يتحول هو ومن حوله إلى عالم روحاني وسماوي، وكأنه يسمع تسييحات وأذكار الروحانيين وأدعيتهم. والمؤمن بهذا التوجه وبهذا الدعاء، لا يطلب ما يوده وما يطمح إليه فقط، بل يستغيث أيضاً مما يخافه ويخشاه، وهو يعلم بأن الدعاء حصنه الحصين الذي يلجأ إليه. آمالنا ورغباتنا هي دوافع نجاحنا وتوفيقنا، أما قلقنا وخشيتنا فوسيلة من وسائل يقظتنا وانتباهنا تجاه تصرفاتنا السلبية. ومع أننا لا نعرف ما قدره الله تعالى لنا ولمستقبلنا من أمور، نعد



تعالى مع الاحتفاظ بالتوسل بالأسباب، ونقول كما قال الشاعر:

أحوالنا معلومة يا رب من قبلك،  
ما الدعاء إلا تضرع من عبيدك...

وأحياناً نقتبس أدعيتنا من القرآن الكريم أو من أدعية سيد البلغاء والأنبياء ﷺ، ونفتح يد الضراعة أمام باب الرحمن الذي هو محرابنا الأبدي لنشرح ونشكو أحوالنا وما يجول في أعماق أرواحنا. ورعاية منا لأدب المثول أمامه نغلق أفواهنا تماماً وننتقل إلى مراقبة صامتة. وهذه الحال حسب بعضهم -وبدرجة الصدق المصاحب لها- أبلغ من كل كلام، وأفضل من كل بيان، وأحسن من كل تضرع.

ولما كان الله تعالى على علم بكل أحوالنا، الظاهرة منها والخفية، فإن المهم هنا في الدعاء هو اللب والجوهر أكثر من الكلمات نفسها. والله تعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)، إذن فهو من ناحية معرفة طلباتنا ورغباتنا، أقرب إلينا منا. لذا فحسب هذه المعرفة بالحضور الإلهي وبالقرب الإلهي، فإن الأدعية الصامتة هي عين الأدب مع ذلك المستوى المتميز من العباد. وسواء أكان هذا نابعا من مفهوم الغيب أو من مفهوم الحضور الإلهي، فإن الله تعالى الذي يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) يشوقنا إلى الدعاء. لذا يُعد عدم الدعاء استغناء لا معنى له وانقطاعاً وبعداً عن الله تعالى.

### الدعاء سمو وندو

إن من يستطيع فتح يديه لله داعياً وضارعاً من كل قلبه، ويتوجه له، يستطيع تجاوز البعد الموجود بينه وبين ربه -الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد- والنابع من وضعه المادي والجسماني. وباحترامه لهذا القرب يستطيع الخلاص من وحشة بعده عنه. ويشاء الله تعالى إسماعه ما يجب أن يسمع، ويُريه ما يجب عليه أن يرى، ويُنطقه بما يجب عليه أن ينطق، ويوفقه لعمل ما يجب عليه أن يعمل. وهذه المرتبة من القرب، مرتبة خاصة يمكن الوصول إليها عن طريق النوافل،

أيها الموجود الأزلي الذي هو  
سبب وعلة وجودنا، وروح  
أرواحنا! يا من نوره ضياء  
أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ  
الروح في أبداننا لبقينا حمأ  
مسنونا، ولو لم تهب النور  
لأعيننا كيف كنا نستطيع  
فهم وتقييم الكون من حولنا،  
وكيف كنا نستطيع معرفتك؟

حيث يرى ما وراء المُشاهد، ويسمع ما وراء الأصوات، وتكون قابلياته الأخرى أيضاً غير اعتيادية، وتتجاوز قدراته السابقة ليصبح -في هبة واحدة- إنساناً في بُعد آخر، ويرتفع إلى مستوى آخر، ويكون عبداً دائم التضرع لله، يتضرع إليه ويدعوه ويجد منه الاستجابة... يتمسك بالدعاء والتضرع كتعبير عن إيمانه بالقدرة غير المحدودة لربه، ويُسند ظهره إلى قوته اللانهائية، فلا تفتر شفثاه عن الدعاء في كل أمر من الأمور وإن بدا أبعد شيء عن التحقق.

### الدعاء لذة إيمان

ولهذا فإن الأرواح التي وصلت لمستوى تذوق لذة الإيمان، وسمت بالعبادات، لا تقصّر أبداً في الدعاء. على العكس من هذا، فهي تدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وسبب خلقها، لذا تعطي للدعاء أهمية قصوى. وبجانب قيام أصحاب هذه الأرواح برعاية الأسباب المادية والمعنوية، يسارعون إلى فتح يد الدعاء والتضرع لربهم من أعماق قلوبهم، ويرون أن الأدعية وسائل تُقَرِّبُهُمْ إلى خالقهم، وهي منبع آمالهم ورجائهم. وفي مثل هذا الجو من القرب يُحسّ بجو من المهابة والقلق إلى جانب الشعور بالبهجة وتوقع تحقيق الآمال. وعندما ينظر الإنسان إلى كل شيء من خلال تأمله في أزليته وأبديته سبحانه، يحس وكأنه يستمع إلى دقات قلبه المرتعش، وينتقل إلى حالة من اليقظة والتمكين. وهاتان الحالتان اللتان تترافقان عادة عند الدعاء وتتداخلان ببعضهما، تتسعان وتتطوران بنسبة طردية مع سعة أفق المعرفة الإلهية عند الإنسان. والقرآن يشير إلى حال المؤمن عند الدعاء وإلى حالته الروحية عندما يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥). وهذه الآية تشير إلى أن المؤمن لا يمكن أبداً أن يستغني عن الدعاء وعن الالتجاء إلى الله، وإلى أن الله تعالى بجانب عظمته وكبريائه وجبروته لا يسد أبواب رحمته وعنايته، بل يذكر الإنسان بأن أبواب رحمته مفتوحة للجميع على الدوام على مصاريعها، ويؤكد على أهمية الدعاء.

### الدعاء، لب التوجه إلى الله

ونظراً لكونه هو وحده خالقنا وموجدنا ومُطعمنا ومطورنا



من حال لحال، والعارف بحاجاتنا ورغباتنا والمستجيب لها، وصاحب الرحمة الواسعة الذي لا يدع أمورنا لغيره، وذلك مقابل عجزنا وفقرنا وضعفنا وحاجتنا، لذا كان من الأهمية بمكان قيامنا بتعبير سلوكنا وتصرفاتنا تجاهه بكل دقة وعناية. نحن عاجزون وضعفاء ومحتاجون، بينما هو الحاكم المطلق على كل شيء. لذا نحس على الدوام بمدى صغرنا، وبمدى عظمتة، ولا نتوجه عند طلباتنا الفعلية والحالية إلا إليه وحده دون غيره، ونعلم أن الظهور بمظهر المستغني عنه ليس إلا سوء أدب. كما نعد أي تصرف يتسم باللامبالاة عند عبادتنا له أو عند توجهنا له بالدعاء أو أي تصرف يفتقر إلى الجدية، عدم احترام وعدم توقير. لذا نعتني غاية الاعتناء أن نتوجه إليه على الدوام بمشاعر الخوف والإشفاق والمهابة. وعندما نشعر بمدى قربنا منا وبأنه سيستجيب لدعائنا، نشعر بعظمتة وكبريائه جنباً إلى جنب مع سعة رحمته وشفقته ولطفه... فنرتجف من خشيته ونرتعش، ونعيد النظر في تصرفاتنا وسلوكنا وأعمالنا، وحتى في درجة ارتفاع أصواتنا، ونغيرها من جديد، لأننا سنكون في جو من الشعور بأننا تحت مراقبة من لا يغيب عنه شيء، وتحت نظره. فبجانب أذواقنا لا ندع الاحتياط والتدبير. وبهذا المعنى فالدعاء أصفى مظهر من مظاهر العبودية وأصدقها في كل حين، لكونه لبّ التوجه إلى الحق تعالى بالطلب وأفضل إعلان للعبودية.

والحقيقة أن كل الموجودات تدعوه وحده ﷻ على الدوام بلسان حالها، وبنوع قابلياتها، وبلسان حاجاتها الفطرية، فيقوم بالرد والاستجابة لها ضمن إطار من الحكمة، ويسمع كل صوت ويستجيب له.

ولكن ليس من الصحيح توقع الاستجابة لكل أدعيتنا كما هي، لأننا لا نأخذ بنظر الاعتبار إلا رغباتنا وطلباتنا المتعلقة بآماننا الحالية، فنضيّق بهذا، إطار طلباتنا، وننسى أو نهمل المستقبل أو الأمور الأخرى المتعلقة بنا عن قرب ولا نأخذها بنظر الاعتبار. ولكنه تعالى يرى حالنا الحاضر، وكذلك مستقبلنا القريب والبعيد في اللحظة نفسها، فيوسع ما ضيقناه حتى يجعل أدعيتنا بسعة الدارين في الدنيا وفي العقبى، ويستجيب لها ضمن أبعاد متعددة حسب موجبات رحمته وحكمته. أجل، فهو عندما ينير أوضاعنا الحالية، لا يفسد مستقبلنا ولا يحول أضواء آماننا الحالية إلى ظلمات في المستقبل. وعندما يقوم بالإنعام علينا، لا يسحب من الآخرين نعمه ولا يحرمهم من فضله، بل يستجيب للجميع

ولكل شيء استجابات عميقة، ليظهر لنا أنه سمع أدعيتنا، وأخذ طلباتنا بنظر الاعتبار، فيهب قلوبنا بقربه وحضوره انشراحاً وبهجة وراء كل خيال وتصور.

### الدعاء مفتاح القلوب إلى الماورائيات

والقلب المفتوح على هذه المعاني عندما يفتح كف التضرع والدعاء، يعلم بوجود من يراه ويحس حتى بأنفاسه، ويعلم سره ونجواه، ويشهد أئينه وبكائه، وهو على كل شيء قدير، وحاكم ومسيطر على كل شيء، يعمل ما يشاء وكيفما يشاء، وأن هناك حكماً مختلفة في كل ما يفعله. واستناداً إلى رحمته وإرادته ومشيبته، يرى الداعي بأنه يستطيع التغلب على كل صعب من الصعاب، ويحس بالطمأنينة في أكثر أوقاته توتراً، وفي أصعب وأحلك الحوادث التي يجابهها، ولا يتخلى عن أمله أبداً، ولا يلفه اليأس مطلقاً. وكم من معان عميقة تكمن في توجهه نحوه تعالى عدة مرات يومياً ضمن هذا الإطار، محاولاً أن يرى ويسمع بقلبه ما وراء هذا العالم المادي. والذي يذوق فضل مثل هذا التوجه ونعمته، لا يستطيع ترك ملازمة عتبة بابه تعالى. وحتى وإن لم نستطع الوصول تماماً إلى مثل هذا الفضل، نتوجه للمرة الأخيرة نحو باب حضرته العلية، ونلمس مطرقة الباب لتتضرع وندعو بقلب يئن:

أيها الموجود الأزلي الذي هو سبب وجودنا وعلته، وروح أرواحنا! يا من نوره ضياء أعيننا وأبصارنا! لو لم تنفخ الروح في أبداننا لبقينا حمماً مسنوناً، ولو لم تهب النور لأعيننا كيف كنا نستطيع فهم وتقييم الكون من حولنا، وكيف كنا نستطيع معرفتك؟ لقد أوجدتنا مرتين؛ مرة عندما خلقتنا... ومرة عندما وهبت لنا الإيمان والعرفان. ولو قمنا بحمدك والشاء عليك بعدد ذرات الكون، لما وقينا حقك من الشكر. يا أجمل من كل جميل! ويا أبهى من كل بهي! يا من تُظهر صور الجمال في كل آن وحين، وتستتر ما يبدو قبيحاً حتى تضفي عليه مسحة من الجمال! نتضرع إليك أن تملأ قلوبنا بمشاعر الجمال وأحاسيسه، وأن تبصّرنا بطرق الجمال ومسالكه على الدوام.

يا أرحم من كل رحيم! يا من لا تعاقب المسيء فوراً، بل تمهل وتتغاضى عمن يتجاوز حدّه، وترك له فرصة لتتقية قلبه من الذنوب والآثام المعنوية! احفظنا يا رب من التلوث بالآثام وبالذنوب، واغفر لنا عندما نتلوث ببعضها، ولا تحرمنا من مغفرتك ومن رحمته ولا تبعدنا عنها. كنا





## القلب شاطئ أمواج الماوراء

يا بحرًا بالشوق مَوَّاجًا،  
ويا موجًا بالعشق موارًا...  
فالشاطئ الهيمان،  
إليك يرنو،  
وهدايك ينتظر؛  
رملك الناعم المغسول،  
وماءك الصافي الطهور...  
فشوقه إليك لا ينطفئ،  
وحبه لك لا يبلى...

\*\*\*

عدمًا فأوجدتنا، ونحن مستمرون في الحياة بفضلك وبطفلك  
وبجودك وإحسانك، محاطون على الدوام بجودك وإحسانك  
وكرمك. أنت يا رب من يمنح النور لعقولنا، ولذة الإيمان  
لقلوبنا. كان العقل في تشوش وتخبط حتى وصل إليك،  
وكانت النفس تعدو وراء البغي. وعندما جعلت العقل مرشدًا  
وهاديًا لجمت به أهواء النفس وفتحت أمامها أفق الاطمئنان.  
لقد وجدنا أنفسنا بفضلك، وتخلصنا من الضياع هنا وهناك  
في الدروب بلطفك.

ما وصلت قلوبنا إلى الاطمئنان إلا بمعرفتك. وما تخلصت  
أفكارنا من الهذيان القاتل وانسلت منه إلا بالاستسلام لك.  
أتينا إلى بابك وطرقناه بذلة وخضوع، ندعوك أن تديم هذه  
الذلة لك إلى أبد الأبد. اسمك على الدوام على شفاهنا  
عند دعائك، ننتظر برهة وخشية جوابك. لم يسمعنا حتى  
اليوم سواك، ولم يربّ بشفقة على رؤوسنا أو ينظر أحد  
سواك إلى وجوهنا. كل ما وجدناه كان من عندك وحدك.  
وبفضل الإيمان بك تخلصنا من مشاعر الغربة والحيرة  
والذهول، ومن آلام الوحدة والوحشة، لذا نتوجه إليك مرة  
أخرى بكل كيانتنا نطلب منك العفو والعافية.

نعوذ بك من قساوة القلب، ومن الاستناد إلى غيرك، ومن  
الغفلة ومن الإهانة والهوان، ومن المسكنة والجهل، ومن  
علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ونفس لا  
تشبع، ومن دعاء لا يستجاب له، ومن زوال النعم، وتغير  
الأنطاف، ومن عذاب عاجل وغضب ماحق.

ندعوك أن تهب لنا لسانًا ضارعًا، وقلبًا خاشعًا. اقبل منا  
يا رب توبتنا، ونقنا من خطايانا كما ينقى الثوب الأبيض من  
الدنس، واستجب دعاءنا، وافتح آفاق قلوبنا، وألزم ألسنتنا  
كلمة الصدق، وطهر قلوبنا من الدنس يا رب! وهب لنا يا رب  
ثباتًا في أعمالنا، وعزمًا وقرارًا في طريق القرآن، وحساسية  
تجاه نعمك. لا تُرجع يا رب من يدق بابك خائبًا، وتفضل  
بنعمك وألطافك على عبادك الطائعين، واهد من عصاك  
وضل عن سبيلك. وزين دعاء المضطرين بالاستجابة لهم،  
وساعد أصحاب الكرب، وعالج أصحاب القلوب المريضة  
وهب لهم الشفاء، وأظهر نورك للذين يتخبطون في ظلمة  
الكفر والإلحاد كي لا تبقى فيهم أي نقطة أو ركن مظلم. ■

(\*) الترجمة عن التركية: أورهان محمد علي. (رحمه الله)



أشرف ما عرفته الأرض من علم، هو ذلك العلم الذي يغوص في ماهية الإنسان وغايات وجوده، وأسرار أكوانه وعوالمه، وكل علم دون ذلك فهو إلى الجاهالة أقرب، وفي العماء أبعد.

\*\*\*

(الموازين)



## من جمال الإسلام

هذا الظرف المهم في مجتمعنا، ومع ذلك فأنا من كل قلبي أخبرك أنه لا رغبة لي في الابتعاث إلا باصطحاب والدتي، وثق أنني لا أقبل المساومة على هذا الشرط.

وانتهى النقاش عند هذا الحد بيني وبين المدير، ونسيت الموضوع تمامًا. فلم أكن أطمح إلى الابتعاث لأن دبلوم الابتعاث يحتاج إلى معاناة، ثم إن مردوده الوظيفي لا يستحق كل هذا العناء، ولذا شعرت حين أخبرني المدير بعد ذلك بقرار ابتعائي أنني أقدم على شيء ليس مريحًا...

لم تفرح زوجتي كثيرًا بخبر هذا السفر، ولم تخف والدتي ضيقها وإن كانت لا تبدي أي اعتراض، وذلك من طيبة ودها ولطفها بي. فهي تلقي وجهة نظرها بأسلوب خفيف بعيدًا عن الإحراج، لأنها تعرف أن أي وجهة نظر منها، ساعدتها أمرًا أمثله مهما كان. ولذا لم تكن تتضجر أو تبدي تأففًا لأي أمر تراني مُقدِّمًا عليه أو في مصلحتي، وكانت تثق كل الثقة باختياري ورأيي، وهو شيء أعترهه، وتوفيق من الله أشكره عليه.

ل لم أكن بحاجة لتذكيري أن البر بالوالدين فرصة ذهبية لا تعوض لدخول الجنة، ولذا أصررت على أن أصحب معي أسرتي وبخاصة والدتي المريضة، وأن يكون ذلك شرطي الأول والأخير لقبول الابتعاث إلى ألمانيا في دورة مدتها سنة وبضعة أشهر، لدراسة مواد تخصصية في مجال عملي. أكد لي المدير أن لا يمكن ابتعائي بهذا الشرط، وأن هناك ثلاثة موظفين ليس عندهم ظرفي الذي يستوجب ذلك الشرط. سألته:

- هل تراني أكفأ المتقدمين أم لا؟

قال: بصراحة، نعم.

- أليس في نظام الابتعاث شيء بخصوص ظرف مثل

ظرفي مع والدتي؟

- أظن.

- لا.. بل فيه.. أنا متأكد أن واضع النظام قد راعى مثل

وعلى الرغم من ذلك الجفاف والبرود الذي صاحب قبول الابتعاث، إلا أنني أشعر داخل نفسي بأن الابتعاث سيكون من ورائه خير ما، لا أدري ما هو، لكنني أحس بأنه سيحدث. قلت لوالدتي: "تغير جوًا ونزداد خبرة ومكافأة". قالت بسماحة نفس: "الله يدبرنا وإياك للخيرة المباركة". واعتبرت هذا القول منها موافقة ثمينة.

وفي الأيام التي سبقت السفر، زرت مع والدتي الطبية التي تتابع علاجها، وأخذت كمية كبيرة من الأدوية التي تتناولها، وكذلك كل ما أتوقع أنها تحبه وستفقه في السفر. وصلنا إلى "كولون" بألمانيا، المدينة التي سوف أدرس فيها. وأسرعت في البحث عن سكن مريح فوجدته في حي هادئ جدًا. لم يكن يعينني في الدرجة الأولى إلا الراحة النفسية لوالدتي ولزوجتي وأطفالي الثلاثة.

وسارت أمور الدراسة سيرًا حثيثًا مع حرصي ألا تستأثر بوقتي جميعه، ولذا لم أضغط على نفسي في الجدول الدراسي، لكي يكون لي وقت مع أسرتي ووالدتي. ولم أجد صعوبة تذكر بالنسبة لعائلتي، إذ كانت هنالك مرونة في التلاؤم مع الظروف الجديدة، فسارت الأمور على خير ما يرام. أما بالنسبة لوالدتي المريضة المقعدة، فلا بد أن تلقى مني ومن الأسرة عناية مضاعفة، وإن كنت على يقين أنها -حتى وإن لم ترتح في الغربة- فلن تبدي لي شيئًا من ذلك، حتى لا تكون سببًا في إرباكي أو مضايقتي. ولذا لم أدخر جهدًا في بذل سبل الراحة لها.

واشتريت سيارة مناسبة، فكنت أوقفها قريبًا من باب المنزل، ثم أدفع بالكرسي المتحرك الذي تجلس عليه إلى السيارة فإذا حاذيت الباب فتحتة، وحملتها برفق بالغ ووضعتها على الكرسي المجاور لكرسي السائق، ولم أنس في كثير من الأحيان أن أمارحها بكلمة تشجيع أو مجاملة.

وكلما خطر في ذهني شيء من التضاييق أو التعب، استحضرت قصة ذلك الرجل الذي حمل والدته وطاف بها البيت وسأل عمر عليه السلام هل أدى حقها أو شيئًا من حقها؟ فقال له عمر: ولا طلفة من طلقاتها، إنك تحملها وتتمنى موتها حتى تستريح، وحملتك وهي تتمنى لك الحياة.

أتذكر هذه الحادثة فأستحي، وأبعد كل غرور يطيف بأرجاء نفسي في أن أكون قد أدت شيئًا من الواجب نحوها. ومع ذلك لا أذكر أنني تعمدت إغضابها، وكنت سعيدًا لا

تكاد الأرض تسعني من الفرح حين أرى مخايل الرضى على قسما وجها، وأسمع منها الدعاء الصادق الذي أجده يعطر الأجواء حولي أينما ذهبت.

كنت رفيقًا بها، حنوًا عليها كلما أنزلتها من السيارة ووضعتها على الكرسي المتحرك، أو عند التجول بها في الحديقة أو السوق. وقد عرفت زوجتي أن هذا الأمر من مهماتي، فتولت العناية بأطفالي والإمساك بهم في مثل تلك التجولات.

كانت هنالك عينا ترقباني في كثير من الأحيان دون أن أشعر، وكانت تبهرهما العناية المدهشة وسعة صدري في هذه الرعاية التي أقوم بها لأمي.

وفي إحدى الأيام وعقب المجيء من جولة من جولات التنزه مع والدتي وزوجتي وأطفالي. وجدت جاري قادمًا نحوي وأنا في طريقي لإنزال بعض الأغراض من السيارة. إنني أعرفه معرفة خفيفة، فطالما تبادلنا وإياه تحايا عابرة حينما نلتقي قريبًا من منزلنا، أو في السوق المركزي الصغير للحي الذي نسكن فيه.

كان رجلًا طويلًا، ضخم الجثة، أشيب الشعر، تدل سحنته على شيخوخة وكبر في السن، وإن بدا وافر النشاط جم الحيوية، لكنه أبدًا لا يستطيع إخفاء أعراض الشيخوخة التي تبدي زحفها القوي على بدنه وتترك بصماتها الواضحة في انحناء ظهره، وتجعد بشرته، وضعف بصره... لكن روحه بالفعل كانت شابة، تتجلى في نظراته المتفائلة، وابتسامته الصافية البسيطة التي لا يتكلفها، يحيي بها كل قادم حتى ولو كان غريبًا مثلي. قال لي:

- لقد تعارفنا منذ مدة أليس كذلك؟

- سعدت بذلك.

- لا أحب الفضول أو التدخل في شؤونك الخاصة، ولكن هنالك شيء يشيرني وأتعجب منه كثيرًا... هذه العجوز التي تعتني بها، كم تدفع لك من الأجرة مقابل هذه العناية الشديدة بها؟ لابد أنها تجزل لك المكافأة؟! ثم أضاف:

- لقد رأيتك تعتني بها عناية فائقة، وذهلت لاستمرارك على هذا المستوى، دائمًا تحملها في السيارة ثم تنزلها منها، وتقبل رأسها ويدها، وتتجول بها وترف عنها... لم أرك في يوم من الأيام متضايقًا من خدمتها. لقد أثار هذا فضولي كثيرًا



لا مؤاخذه! ولكن هذا ما حدث بالفعل، وهو ما دفعني بالفعل إلى هذا السؤال.

ورأيت أن أزيل الكلفة بيننا فقلت له:

- سأجيبك على تساؤلك، ولكن ليس هنا ونحن وقوف على باب المنزل، أرجو أن تتفضل وتشرب معي فنجاناً من القهوة.

- أنا حريص على وقتك... ربما لا تعلم أنني متقاعد ولدي وقت فراغ أكثر منك بكثير.. وأكثر مما أريد.. ولا أريد أن أضايك.

- لا مضايقة أبداً.

ودخل معي إلى المنزل، وبينما كنا نرتشف القهوة، رحت أجيبه عن تساؤله الذي أفضى به إلي، وأخبرته أنها أمي، وأني أخدمها بدون نقود، بل إنني أنفحها في كل شهر بمصروف خاص تنفق منه ما تريد، مع تغطية جميع ما تحتاج إليه بكل معنى الكلمة. ذهل وهو يسمع هذه المعلومات... قلت:

- ليس هذا هو المهم.

نظر إليّ بتعجب وقال:

- وهنالك ما هو أهم من ذلك؟

- نعم، إنني أقوم بكل ذلك في سعادة غامرة، ورضى يغمر قلبي بالحب والسرور، إنني لا أشعر أنها مشكلة على الإطلاق، بل نعمة موفورة أتاحتها القدر لي. وهنالك شيء أومن به وهو أن ما سأقدمه لوالدتي سوف أجده من أبنائي، والأمر الأعظم من ذلك كله أنني أريد رضى الله تعالى. ولدينا إيمان نحن المسلمون، بأن رضى الله من رضى الوالدين، وسخطه من سخطهما، فهما أو أحدهما سبيل لنعيم خالد، أو لعذاب خالد مستمر بعد الموت، هذا أمر الله تعالى ويجب أن نمتثله ولا نعارضه.

قال بلهجة ونبرة فيها تأسف:

- أنا لا أصدق أن مثل ذلك يحدث لولا أن رأيتك بعيني! وتهد بحسرة بالغة وهو يقول:

- لقد أحلت إلى المعاش منذ ثلاث سنوات، ولو لم يكن لدي هذا المنزل وراتب المعاش لرمى بي ولدي وابنتي إلى دار المسنين، لأنني لا أجد عندهما أي عاطفة نحوي... لقد أنفقت مالا كثيراً في تربيتهما وتعليمهما، ومع ذلك فقد نسيا ذلك كله... ثم توقف ليقول:

- أتصدق أن ابني قد زور توقيعى عدة مرات وسحب

من رصيدي في المصرف عدة مرات؟ كان يعلم أنني أحبه وأني لن أعاقبه. وقد غضبت منه وقتها، ولكنني لم أستمّر في غضبي لأنني بالرغم من كل شيء أحبه، والمشكلة أنه يعرف ذلك... لقد خدمت في الشرطة زهرة شبابي حتى وصلت إلى رتبة جيدة، والآن أعيش وحدة قاتلة. ولو كانت زوجتي بجانبني الآن ربما كانت المشكلة أقل، لكننا كنا قد افترقنا بالطلاق منذ عدة سنوات، وعاش كل منا وحده. لا أدري ما حدث لها بعدي... آسف!

ثم أضافة بلهجة حزينة...

- لقد أشغلتك بأمور لا تعنيك.

- لا، أبداً... أنا سعيد أن تختارني بالذات لتكشف لي عن معاناتك... وهذه ثقة أعتر بها، أعتر بها كثيراً.

- حقاً... أنت تبالغ في مجاملتي.

- هذا ما أعتقد... أنا لا أجاملك.

وسار الحديث هادئاً هائئاً، ثم تجدد اللقاء بعد ذلك، حيث دعاني إلى منزله عدة مرات... وحين عرف أن ديني الإسلام هو الذي يجعلني أحترم والدتي وأحبها وأبذل الكثير لإسعادها، رأيته يطلب مني أن أحدثه عن الإسلام... قال إنه لا يعرف إلا القليل عنه، وأن هذا القليل لا يشجع مطلقاً على الدخول فيه.

وجدتها فرصة... قلت له:

- لماذا لا تتعامل مع المصدر الأصلي لتعاليم الإسلام؟

- ما هو؟

- القرآن الكريم.

وناولته في اليوم التالي نسخة من القرآن الكريم، وعددًا من الكتب الإسلامية المتميزة، وتركته يقرأ على مهل، ويفكر بهدوء، وأنا أدعو من صميم قلبي أن يهديه الله على يدي. ولم يخيب الله رجائي، إذ لم تمض ثلاثة أشهر، إلا وهو يأتي إليّ يعلن فيه رغبته في اعتناق الإسلام... هذه الرغبة التي أشعلتها في نفسه -بعد توفيق الله- رؤيته لرعاية والدتي بكل حب وحنان. لقد جاءت به المشاهد التي رآها لمعاملتي لوالدتي ليكون من المسلمين من غير أن أكلمه وقتها بأي كلمة عن الإسلام. ■

(\*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية / المملكة العربية السعودية.

عَلَّمَ نَفْسَكَ ثُمَّ عَلَّمَ غَيْرَكَ تَكُنْ إِنْسَانِيًّا وَاضِحَ الْإِنْسَانِيَّةِ... فَالَّذِي لَا يَسْعَى لِتَجْدِيدِ نَفْسِهِ  
بِالتَّعَلُّمِ الدَّائِمِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَإِنْ بَدَأَ إِنْسَانًا فِي صَوْرَتِهِ، غَيْرَ أَنْ سِرِّيَّتَهُ تَبْقَى غَارِقَةً فِي  
جَهَالَتِهِ، بَعِيدَةً عَنْ مَعَانِي إِنْسَانِيَّتِهِ.

(الموازين)

\*\*\*

# التربية البيئية

## في ضوء توجيهات التربية الإسلامية

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ ﴿الدخان: ٣٨﴾. ويعد الإنسان جزءاً متميزاً من هذا الكون الذي تُكمل عناصره بعضها بعضاً، وله موقع خاص بين أجزائه. وصلة الإنسان بالكون كما وصفها القرآن الكريم، هي صلة الاستثمار والانتفاع والسكن والتعمير والمتعة وتذوق الجمال والتسخير... هي صلة الاعتبار والتأمل والتفكير بالكون وما فيه... وعلى ذلك فعمارة الأرض وإصلاح الكون وتذليل كل الصعاب فيه، والحفاظ على بيئة الإنسان -جميلةً ونظيفةً- مطلب إسلامي

إن الحركة الذاتية لمكونات وعناصر البيئة، حركة توافقية ينسجم بعضها مع بعض في ظل نظام غاية في الدقة تحكمه النواميس الكونية الإلهية، وهو ما يطلق عليه في عصرنا الحالي بـ"النظام الأيكولوجي" (Ecosystem). وإذا حدث تغير مقصود أو غير مقصود في أي عنصر من عناصر البيئة -سواء في خصائصه الكمية أو النوعية- فإنه يؤدي إلى تدهور مظاهر الحياة، وربما تختفي مظاهر الحياة تماماً، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا

إ



أصيل يدخل في صلب رسالة الإنسان في هذه الحياة، باعتبار الإنسان وسيلة وغاية، وبوصفه أحد مكونات الكون الفاعل في النظام الأيكولوجي، والمسؤول عن إدارتها وحمايتها واستثمارها على وفق الموجهات الأساسية الواردة في القرآن الكريم.

وصيانة البيئة والمحافظة عليها، واجب مقدس من واجبات الإنسان وفرض عين على كل مؤمن، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠). وحذر الله تعالى من الإساءة في استخدام البيئة

وإفسادها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة: ٢١١).

فالعلاقة بين الإنسان وسائر المكونات، هي علاقة محبة متبادلة لا علاقة عدا و استئثار وإهمال واستعباد للآخر. والرسول الكريم ﷺ في حديثه الشريف يقول: "هذا جبل يحبنا ونحبه" (رواه البخاري)، هذا الحديث الشريف يصلح شعاراً وإطاراً لعلاقة الإنسان بالبيئة.

ويحمل الإسلام الإنسانية مسؤولية المحافظة على البيئة، ويظهر ذلك من قوله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً" (رواه البخاري).

إن موقف الإسلام من البيئة وموارد الحياة وأسبابها، موقف إيجابي، فكما يقوم على الحماية ومنع الإفساد، يقوم أيضاً على البناء والعمارة والتنمية، وهذا يتجلى في فكرة إحياء الموات وعمارة الأرض بالزراعة والغرس والبناء، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، ويقول ﷺ: "إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل" (رواه الإمام أحمد)، وقال الإمام

موقف الإسلام البيئة هو موقف إيجابي، فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها الملائمة لحياة الإنسان وقراره فيها، كما لا يجوز استثمار تلك الموارد أو الانتفاع بها بشكل مسرف وغير رشيد يفسد أو يعرض أقيانها ومواردها للفساد والتشويه.

عليه ﷺ: كُلْ هَنِيئًا وَأَنْتَ مُصْلِحٌ غَيْرُ مُفْسِدٍ وَمَعْمَرٌ غَيْرُ مُخْرَبٍ.

إن إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية، والمحافظة على النظام الحيوي ومنع إفساده، ينبغي أن يتحقق وفق القواعد الكلية الشاملة لإصلاح الحياة، وتسييرها تبعاً لمبادئ الاستخلاف المرتكز على الإيمان والعبادة والقواعد الفقهية وأصولها وأحكامها، وعلى وفق الأخلاق بوصفها جوهر الإسلام وروحه الفاعلة في جميع جوانبه لقوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه الإمام أحمد).

ولتحديد الرؤية الإسلامية للبيئة وعلاقة الإنسان بها، تبدو الحاجة إلى أهمية توضيح المبادئ والمفاهيم الأساسية المنبثقة من القرآن الكريم، والتي تشكل في مجموعها ملامح الفلسفة الإسلامية للثقافة الإسلامية، يمكن إيجازها كالتالي:

## ١- الاستخلاف

الاستخلاف هو خلافة الإنسان في الأرض (البيئة)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

فهي إذن خلافة رعاية وإعمار وإدارة وتسخير أصبحت بها الخلائق والكائنات في إمرة الإنسان، حيث أصبح قائماً بها في موضوع الوصاية والنيابة عن الله ﷻ في التصرف في الكون وفي البيئة بما فيها؛ لأن الإنسان أرقى هذه المخلوقات، ولأن الله ﷻ خصه بنعمة العقل التي حُرِّمَ منها بقية المخلوقات وفضله عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠). والاستخلاف يعني أن الإنسان وصي على الأرض (البيئة)، لا مالك لها، فمن المعروف أنه ليس هناك ملكية مطلقة للإنسان. فالملكية في الإسلام محددة بضوابط وشروط حددها الله ﷻ، ومن هذه الشروط حسن استغلالها وتنميتها والمحافظة عليها من أي

تدمير أو تخريب. عن سعد بن زيد رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له" (رواه الترمذي)، ويروى عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين ولم يعمرها فعرها قوم آخرون فهم أحق بها.

فالكون هو أمانة الله ﷻ للإنسان، ولذا يجب أن يتصرف في حدود الأمانة التي وهبها الله إياها مراعيًا في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وفي هذا الإطار تصبح البيئة أساساً لاختبار الإنسان، فهو مكلف بأن يفهم الطبيعة ودورها.

ومن منطلق خلافة الإنسان على الأرض، فهو مسؤول عن تسخير الكون والكائنات بما فيه النفع، ومدعو إلى العمل والسير في دروب الكون ومناكبه، ومطالب بالسعي والإبداع والإعمار باعتباره -من منطلق الخلافة- هو صاحب الشأن والكلمة في الكون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

## ٢- اعتبار الحلية والحرمة

إن الحلال والحرام مفهومان يحكمان البيئة من وجهة النظر الإسلامية. فالحلال يشمل كل ما هو نافع للإنسان ولمجتمعه ولبنيته وللأجيال القادمة، والحرام يشمل كل ما من شأنه تدمير الإنسان وبيئته، لقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥). فكلما سلك الإنسان بعيداً عن السلوكيات التي رسمها الله ﷻ، حصلت الكوارث والمآسي، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١). والقاعدة الفقهية "ما أدى إلى الحرام فهو حرام"، قاعدة تحذرنا من مغبة السعي إلى أي صورة من صور الإفساد والتدمير والتخريب لبيئتنا.

إن إصلاح الحياة الإنسانية والطبيعية، والمحافظة على النظام الحيوي ومنع إفساده، ينبغي أن يتحقق وفق القواعد الكلية الشاملة لإصلاح الحياة، وتسييرها تبعاً لمبادئ الاستخلاف المرتكز على الإيمان والعبادة، والأخلاق بوصفها جوهر الإسلام وروحه الفاعلة في جميع جوانبه.

وقد بين الله تعالى ما هو حلال وما هو حرام، ليكون خليفته في الأرض على بيئة في تعامله مع نفسه ومع الآخرين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). وإذا أمعنا النظر في بعض آيات القرآن الكريم التي تذكر الطيبات، وجدناها كأنها موجهة للرد على من يستهين بهذا المتاع الطيب ويرى منها شيئاً لا معنى له ولا أهمية، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

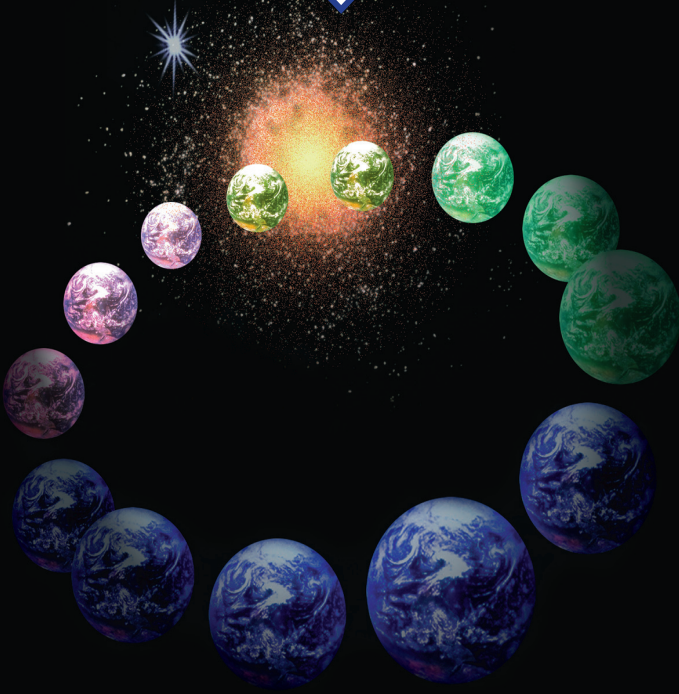
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) (المائدة: ٨٧-٨٨). وقد نهى الرسول ﷺ عن الأذى، واعتبره من المحرمات؛ عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أذى المسلمين في طريقه وجبت عليه لعنتهم" (رواه الطبراني). فالتعدي على حق الطريق لإشغاله أو تضيقه أو وضع الفضلات والمعوقات في طريق المارة أو مضايقتهم من قبل الجالسين على قارعة الطريق بالألفاظ الجارحة، أمر يتنافى مع جوهر الإسلام وسماحته، فهو الذي وضع للطريق قانوناً وشرع له على الناس حقاً، وجعل إمطة الأذى عنه صدقة... فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الملاعن الثلاثة"، قالوا: يا رسول الله وما هي، قال: "البراز في الموارد وعلى قارعة الطريق وفي أماكن الظل". (رواه أبو داود). وقد اقترن الخير بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ولعل اقتران الحلال بالحرام يعطي هذه الدلالة في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

## ٣- النهي عن الإفساد والإسراف

إن كل ما يؤدي إلى فساد الحياة من إتلاف مكونات البيئة





## الكون شعر منظوم

في الكون تدبّر،  
وفي الطبيعة تفكّر،  
نشازاً لن تجد،  
واختلافاً لن ترى...  
موزون كل شيء؛  
كقصيدة شعر،  
وسمفونية رائعة اللحن...  
فأظنك تعلم،  
أن التفكير من أعظم العبادات...

\* \* \*

وقتل الأنعام وتلوّث المياه وقطع الأشجار لغير مصلحة عامة، يعتبر فساداً والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَغْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٦)، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥).

إن الإفساد في البيئة يحدث عندما ينفك رباط العبودية لله تعالى، عندئذ ينسلخ الإنسان عن هداية الله فيضل ويشقى ويخاف ويحزن. وهي سلوكيات تحول حركته إلى تغير غير ممتزج بالعبودية، وتجعل حماة البيئة ينكرون عليه سلوكه المفسد الذي أحدث ولا يزال يحدث مشكلات في البيئة، حتى أصبح يصدّق عليه القول بأنه مشكلة البيئة.

أما الإسراف فهو ضد التوسط والاعتدال، إذ يريد الله تعالى عبداً متوسطين معتدلين لا هم بمعسرين ولا مسرفين، ويقول تعالى في ذم الإسراف والمُسرفين: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١). وقد نهى الرسول ﷺ عن الإسراف في الأكل، لأنه مضر بصحة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى فالإسراف في الأكل يحجب الإنسان المسلم عن الشعور بمن حوله من الفقراء والمساكين؛ فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: "ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه" (رواه الترمذي).

فموقف الإسلام من البيئة هو موقف إيجابي، فلا يجوز للإنسان إفساد البيئة بإخراجها عن طبيعتها الملائمة لحياة الإنسان وقراره فيها، كما لا يجوز استثمار تلك الموارد أو الانتفاع بها، بشكل مسرف وغير رشيد يفسد أو يعرض أقواتها ومواردها للفساد والتشويه. ■

(٩) كاتب وباحث جزائري.

المراجع

(١) أبو عبيدة القاسم ابن سلام، تحقيق محمد حامد الفقي: الأموال، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

(٢) الفلسفة التربوية البيئية، لسعدون سلمان نجم الحلوسي، دار الهدى، مالطا ٢٠٠٢.

## "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً"

الذي من شأنه أن يدمغ كل باطل: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء: ١٨). مفهوم الإلقاء إذن، فيه معنى التحلية ومعنى الدمغ، غير أن الإلقاء على سيدنا رسول الله ﷺ يستبطن معنى آخر مفاده، أن هذا القول الثقيل الذي قال الله ﷻ في حقه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١)، نزل على رسول الله ﷺ لِيُعْبَرُ مِنْهُ إِلَى الْعَالَمِينَ. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعددة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقيه، وقادرين على سماعه. ومن تجليات شدة وطأة القول الثقيل على الذات النبوية الشريفة، أنه حين نزلت

هذه بصيرة من بصائر القرآن الكريم، تبصّر الإنسان بقيمة وثقل هذا القول الملقى إليه من رب العالمين ﷻ، وهي قوله جلّ وعزّ:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥٠).

تتضمن هذه الآية المباركة مفهوماً محورياً هو مفهوم الإلقاء؛ والإلقاء في القرآن المجيد يبرز باعتباره للتحلية: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥٣)، والأساورة كما هو معلوم تستعمل للتحلية مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِّنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣). كذلك يبرز "الإلقاء" مفهوماً للدمغ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: ١١٧)، فالإلقاء هنا هو ذاكم

هـ



سورة الأنعام<sup>(١)</sup> كان رسول الله ﷺ فوق راحلته فبركت به وسمعت لعظامها طقطقة.<sup>(٢)</sup> وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٩٥)، قال فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمْلئها عليّ، فقال يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان رجلاً أعمى - فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فتثقلت عليّ حتى خفت أن ترضّ فخذي ثم سُرّي عنه فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (رواه البخاري)، مما يدل على أن هذه الذات النبوية الشريفة كانت تعاني

القول الثقيل نزل على رسول الله ﷺ ليعبر منه إلى العالمين. فمرور هذا القول الثقيل من الذات النبوية الشريفة التي كانت تعاني أيما معاناة من تنزل هذا القول الثقيل، لطفه بإذن الله تعالى، فأصبحنا نحن بمحدودياتنا متعدّدة الأبعاد وأضرب الضعف التي تعتورنا، قادرين على تلقيه، وقادرين على سماعه.

أو ذات التجربة في مجال معيّن كقول غير ذي أو ذات التجربة في هذا المجال نفسه، فكيف بالله ﷻ خالق كل شيء وربّه سبحانه ومليكه. إن قوله جلّ وعلا ثقيل بهذا الاعتبار المعنوي، كما أنه ثقيل باعتبار قيمته، إنه قول حين يُتملك من قبل هذا الإنسان، ويُستدرج منه بين الجنين، كما قال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ قرأ القرآن فكأنما استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه"،<sup>(٣)</sup> تعلقو قيمته، وقد كان الصحابة رضوا إذا حفظ الرجل منهم الزهراوين (البقرة وآل عمران) يجلس في أعينهم. ويستفاد ذلك من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه:

"عن أنس، أن رجلاً كان يكتُب للنبي ﷺ، وقد كان قرأ: البقرة، وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ: البقرة، وآل عمران، جدّ فينا - يعني عظم" (رواه الإمام أحمد). لأن هذه الحكمة التي في القرآن المجيد، وهذه العسارة، وهذه القابلية للهداية للتي هي أقوم، حين يُستدمج كل ذلك ويُستدرج بين الجنين، فإن قيمة المُستدمج والمُستدرج تعلقو، ويصبح جليلاً سواء أدرك الناس ذلك أم لم يدركوه. كما أن الثقل في هذه البصيرة المباركة يفيد الثقل من حيث الفاعلية، حيث يتسم بالفاعلية في فتح السبل، وإنارة الدروب، والأخذ بيد الإنسان نحو الأكثر نجاعة ونحو الأكثر إنتاجية والأكثر حكمة.

### الثقل في القدرة على الدحض

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة المباركة أيضاً، الثقل في القدرة على الدحض، لذلك سمي الله ﷻ الحجج دون حجة كتابه بـ"الداخضة": ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ (الشورى: ١٦)، أي أنها مدحوضة لثقل هذا القول، حيث يتنزل هذا القول الثقيل على التلبس وعلى التمويه، وعلى الباطل وعلى الفساد، وعلى الخطأ فيدحض كل ذلك، ويخلص منه ويبدده، فالثقل في هذه الآية الكريمة وارد بهذا المعنى كذلك.

### الثقل من حيث القطع والحسنات

كما أن من تجليات الثقل في هذه البصيرة، الثقل من حيث

حسّاً ومعنى من ثقل هذا القول المبارك الكريم. لقد كان يوحى إليه عليه الصلاة والسلام في اليوم الشديد القر، وإن جبينه ليتفصد عن مثل الجمان، أي إن عرقه ﷺ كان يشبه اللؤلؤ في كبر حجمه بأبي هو وأمي ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً" (رواه البخاري).

### الثقل المعنوي

فمفهوم الثقل في هذه البصيرة المباركة يتضمن الثقل المعنوي، إذ إن هذا القول قول من أحاط بكل شيء علماً، يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣)، كما يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ (الزمر: ٢٣)، ويقول عز من قائل: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٥)، فهذا القول منتقى عسارة ما في هذا الوجود من حكمة. فصيغة التفضيل "أحسن" فيها، أن رب العزة الذي عنده خزان الوجود وما هو فيه، وما كان فيه، وما لو كان فيه كيف كان سيكون، ما كان وما سوف يكون في المستقبل، رب العزة ﷻ ينتقي لنا أحسن ما في هذا الخزان، ينتقي لنا أحسن الآيات، أحسن الأمثال. وللاستبصار بدقة هذا الملمح نستعرض المثل الآتي، والله المثل الأعلى: فحين نُكلم شخصاً ذا خبرة في مجال معيّن، فإن قوله يكون متسماً بالتركيز، ويكون متسماً بالدسامة، وبالتعب يكون متسماً بالثقل. فليس قول ذي

القطع؛ حين يكون الناس مختلفين، يتناقشون ويتباحثون ويتدارسون ويتجادلون، ثم يأتي قول الله ﷻ، فيقطع قول كل قائل آخر، لثقله ولبنائيته، ولكونه يستدرج كل هذه المحددات المنهاجية التي تجعله قادرًا على القطع والبر مع كل خطي ومع كل بهرج.

ومن معاني الثقل في هذه البصيرة الجليلة، ثقل هذا القول من حيث الحسنات، لقوله ﷻ: "من قرأ حرفًا من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف" (رواه البخاري)، ويقال لقارئ هذا

القول الثقيل يوم القيامة: "اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرأ بها" (رواه أبو داود). وأما من عمل به فذاك متبوءه من الجنة حيث يشاء، قال تعالى في حق العاملين بهذا القول الثقيل وعلى لسانهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤). فهو قول ثقيل في ميزان الحسنات: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ \* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨-٩)، قول ثقيل في ميزان رب العزة، حيث ترجح كفة من أكرم بهذا القول واستدرجه بين جنبيه، ثم عمل به من حيث الحسنات ومن حيث الأجر العظيم.

### الثقل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب

هذا القول أيضًا ثقيل من حيث قدرته على شفاء ما في القلوب وإحيائها: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، فحين يستقر هذا القول الكريم في قلب المؤمن أو المؤمنة، فإنه لا يمكن أن يتزاحم معه هناك لثقله شيء آخر، من شبهة أو شهوة أو نزعة أو نفثة أو غير ذلك، حيث يملأ هذا القول المبارك القلب فيخبت له ولا يترك مكانًا لسواه أو لغيره، مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ (الحج: ٥٤).

### الثقل من حيث تمكين الإنسان من الاعتبار

ثقل هذا القول كذلك من حيث تمكينه الإنسان من الاعتبار: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢)، فسفينته لا يمكن أن تعترضها أساطيل الشبهات ولا المغالطات، إذ عندها القدرة على شق طريقها من عدوة إلى أخرى، من عدوة الجهل إلى عدوة العلم، من عدوة الحيرة إلى عدوة الهداية، من عدوة الشك إلى عدوة اليقين... إنها سفينة قادرة -بإذن العلي الكريم- على مخر المياه الفاصلة بين هذه العدوات لثقلها، والسفينة كلما كانت أثقل، كانت أقدر

على مخر عباب البحر ﴿وَجَزَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢).

### الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة

كما أن من معاني الثقل في هذه البصيرة الكريمة، الثقل والرجحان حين المقارنة مع الكتب السابقة، فالله ﷻ سمي كتاب موسى وهارون عليهما السلام بالكتاب المستبين: ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (الصفات: ١١٧)، وسمى القرآن المجيد بالكتاب المبين: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: ١)، ولذلك كان هذا القرآن إمام الكتب، وكان المرسل به عليه الصلاة والسلام لثقل القول الذي أنزل عليه، هو الإمام الذي أكرمه الله ﷻ بإمامة الأنبياء جميعًا، كما ثبت في حادثة الإسراء والمعراج المباركة. فقد أخرج مسلم من حديث الإسراء قوله ﷻ: "وقد رأيته في جماعة من الأنبياء (...). فحانت الصلاة فأممتهم" (رواه مسلم)، فهو قول ثقيل بالمقارنة مع النبوات السابقة والسالفة.

### الثقل في حوار الإنسان مع ذاته

ثقل هذا القول أيضًا في حوار الإنسان مع ذاته، فالإنسان ليس وحدة مفردة، وإنما هو يَكُنُّ جملة من الوحدات الأخرى، فهناك الروح، وهناك النفس، وهناك الملك، وهناك القرين، وهناك شياطين الجن والإنس، وهناك المحيط العام، وإحياءات هذه الأصوات الشتى التي تؤثر باطن الإنسان تظهر وتلوح كما لو كانت متساوية من حيث وزنها ومن





## عالم الطفولة

البراءة كلها،  
في طفولة الأطفال،  
في ربيع ابتساماتهم،  
في نضارة عيونهم...  
إنهم ربيعنا القادم،  
وبلابل أرواحنا على أفنان الأيام...  
إذا غردوا، أشاعوا السرور،  
واستفتحوا نافذة على الغد المأمول،  
والوصال الآتي...

\*\*\*

حيث حجيتها، داخل ذات الإنسان. وفي إطار كل هذه الوحدات المكونة له حين يتدخل هذا القول الثقيل، فإن برد اليقين يحل بقلب المرء ولا يبقى، كما قال الله ﷻ: ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ (الزمر: ٢٩)، وإنما يصبح "سَلَمًا" لله رب العالمين، ويصبح أقدر على أن يدخل في السلم كافة، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَايَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٠-٢٠٤).

### الثقل من حيث التحدي

أختم هذا القول عن القول الثقيل، بالإشارة إلى أن من معاني الثقل أيضًا، ثقل هذا القول العظيم من حيث التحدي الذي قد تحدى الله ﷻ به الجن والإنس: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣). هذا التحدي قائم منذ أربعة عشر قرنًا، وقد شهد التاريخ ما وقع للذين سولت لهم أنفسهم أن يزاحموا في هذا المضمار، أو أن ينافسوا هذا القول الثقيل. ولذلك فإن هذا الثقل ينصرف لكل هذه المعاني وزيادة، فهو الدواء، وهو البلسم، وهو الشفاء، وهو الرقية المباركة التي حين تدخل ذات الإنسان فإنها لثقلها تقضي على الأدوية وعلى الأمراض كلها: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ (فصلت: ٤٤).

نسأل الله جل وعز أن يشفيننا بهذا القول الثقيل من كل أدوائنا وأضرُب ضُرْبنا الظاهرة والباطنة. آمين. ■

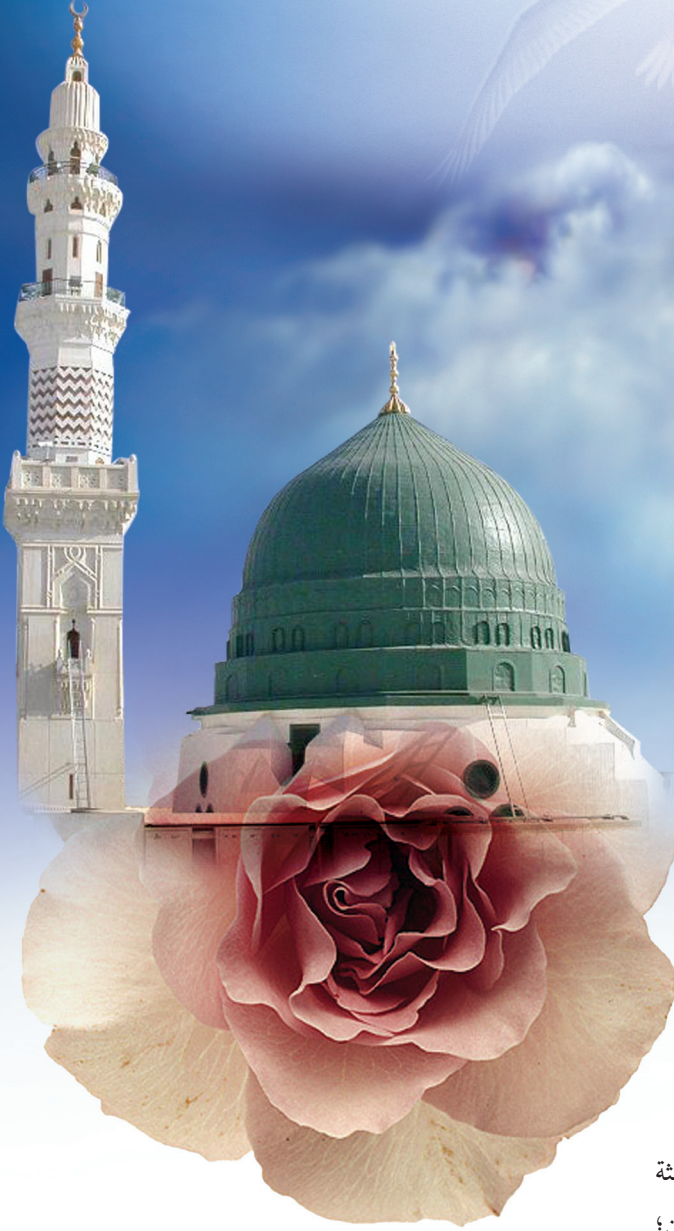
(١) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

#### الهوامش

(١) عن ابن عباس: "نزلت سورة الأنعام جملة بمكة لئلا وحولها سبعون ألف ملك يجزؤون حولها بالتسبيح". أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١٥/١٢).

(٢) قال سفيان الثوري، عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة] وأنا أخذه بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة. انظر تفسير سورة الأنعام عند ابن كثير. (٣) حديث مرفوع أورده السيوطي في باب فضائل القرآن.





# الهجرة

## نقطة انطلاق الأمة

من أعظم الأحداث المفصلية في تاريخ أمة ما، بعثة نبي، ونزول الوحي، فهي لحظة فاصلة تفصل بين مرحلتين من مراحل التاريخ فصلاً أخطر من أي حدث تاريخي آخر... من أجل هذا، وجدنا عناية القرآن الكريم "بتاريخ النبوة"، وجعلها نقاطاً مفصلية في مسيرة البشرية.

فالتاريخ بالمنظور القرآني، مقسم إلى حقبة بحسب بعثة الأنبياء، والفعل الإنساني يمتد منذ آدم عليه السلام على خطين؛ خط النبوة، وخط مناهضي النبوة، أو بتعبير القرآن "الصراط المستقيم" و"سبل الضلال".

ومن هنا تأتي أهمية الحقبة التي تظللها نبوة نبي من الأنبياء، لأنها - بشكل أو بآخر - تلخص قصة البشرية ومشاهد التدافع بين الحق والباطل.

ونحن كمسلمين، ينبغي أن نعي هذه الحقيقة حال تعاملنا مع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهي وإن كانت جزءاً من تاريخ الإسلام العام، فإنها تمتاز بما لا نجده في غيرها من أدوار ذلك التاريخ.

ذلك أنها تشكل مرحلة التأسيس بمختلف تجلياته الاجتماعية والمعرفية والتشريعية والحضارية.

• فالمرحلة النبوية هي منطلق التأسيس للمجتمع الإسلامي الأول، فهذا تأسيسها الاجتماعي.

• وهي أول تجربة بشرية في أدوار تاريخنا الإسلامي تعامل فيها العقل مع النص لفهمه وتنزيله على الواقع، وهذا تأسيسها المنهجي والمعرفي.

• وهي المجال الزمني الذي كانت فيه النصوص مساوقة للواقع، متفاعلة بشكل مباشر مع أحداثه وأنشطة أصحابه، بينما



كل الأدوار التالية على هذه المرحلة حكمٌها قاعدة: "النصوصُ متناهية والوقائع غير متناهية"، وهذا هو تأسيسها التشريعي. • وهي المرحلة التي وضعت فيها القيم التي انتقلت بالعرب من طور القبيلة إلى طور المجتمع والأمة، ومن أفق البداوة إلى أفق الحضارة. فكل ثمرة حضارية أتت من بعد، إنما هي من شجرة بذورها الأولى عُرسَت في تربة المرحلة النبوية، وهذا هو تأسيسها الحضاري.

فالسيرة النبوية بأحداثها -خصوصاً المفصلية منها- تُشكّل كمال التجربة الإسلامية، والأفق الذي ترنو إليه العقول إن هي أرادت أن تتعامل مع هداية الوحي فهمًا وتنزيلًا. وهذا في اعتقادنا، هو التصور العميق لمفهوم "اتباع السنة النبوية"، لا ذاك الذي يقف عند حدود التجربة النبوية في مستوى تعاملاتها مع جزئيات الواقع دون الارتفاع إلى الأصل الذي ينتظم تلك الجزئيات.

بهذه الرؤية، رؤية التاريخ من زاوية الوعي الحضاري، ورؤية السيرة النبوية من زاوية الإدراك الواضح لخصائصها التأسيسية، سيكون وقوفنا مع حدث قد يكون ثاني حدث "مفصلي" في تاريخ الإسلام بعد حادثة نزول الوحي، أعني بذلك حدث الهجرة النبوية.

### الهجرة ومستويات القراءة

أشرنا إلى أن حدث الهجرة قد ترتفع به القراءة الواعية إلى مستوى حدث نزول الوحي، ومما يعزز هذا الزعم أننا نجد خاصية التأسيس تنطبق على الحدثين، باعتبار أن الأول دشن مرحلة البدء لرسالة الإسلام في آخر تجلياتها، وأن الثاني دشن مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية وهي المرحلة المدنية.

وكما أن التاريخ لم يبق على ما هو عليه منذ لحظة تَلَفُظ جبريل ﷺ بكلمة "اقرأ"، فإن التاريخ أيضًا لم يبق على ما هو عليه منذ لحظة وصول سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة مع صاحبه أبي بكر الصديق ﷺ.

وأهمية الهجرة تجليها قراءة الحدث من خلال المستويات التالية: مستوى الحدث التاريخي، ومستوى المنهج، ومستوى الاعتبار (استشراف المستقبل).

### أولاً- القراءة على مستوى الحدث التاريخي

بأن ننظر للهجرة كحدث وقع في زمان ومكان محددين، وتم

بشخصيات ساهمت في صناعته، وكان ضمن سياق أحداث أخرى مهدت له، وأحداث نتجت عنه. وهذه قراءة تستهدي بما ورد من إشارات في القرآن الكريم حول حادثة الهجرة، وبما صح من روايات في كتب الحديث والسير.

وفي هذا المستوى، نجد تعليق القرآن عن الحدث موجزًا، معجزًا كعادته، يمزج في كلمات قلائل بين البعد التاريخي للحادثة وجذورها الإيمانية وتجلياتها التشريعية في بيان علاقة المسلم -في كل زمان ومكان- بصاحب الهجرة ﷺ ودينه، فيبدو الحدث موجودًا في الزمان، متعلقًا عليه في الوقت ذاته، يخاطب أجيال المسلمين في كل وقت إلى أن تنتهي هذه الدنيا، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

فالآية في بعدها التاريخي، تؤرخ لفعل "الإخراج" الذي تعرّض له النبي ﷺ، فهي تتحدث عن "انتقال" طبع المرحلة التي أتت بعد ذلك الحدث، يمكن تلمسه في الجوانب التالية: أ- انتقال في الزمان: إذ فصل الحدث بين زمنين، زمن امتد من بعثة الرسول ﷺ إلى لحظة الإذن له بالهجرة، وهي مرحلة الدعوة المكية بما لها من مقدمات وإرهاصات، بدأت منذ ولادته ﷺ وانتهت زمانيًا على مشارف المدينة المنورة. وزمن امتد من لحظة وصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وانتهى بالتحاقه بالرفيق الأعلى، وهي مرحلة الدعوة المدنية بما فيها من ملاحم وأحداث. فصرنا بعدها نقول: "ما قبل الهجرة وما بعد الهجرة".

وهذا انتقال كان له أثره البالغ في طبيعة التشريع ومضامين الآيات والسور التي انقسمت إلى قرآن مكّي تمحور حول أصول الإسلام عقيدة وشريعة وخلقًا، وقرآن مدني تمحور حول توفير الأرضية التشريعية لبناء المجتمع والأمة والحضارة، فكان التوسع في كل ما يحتاج إليه الإنسان من تشريعات مبنية للعبادة أو ضابطة للسلوك أو مقننة لشؤون المجتمع في السلم والحرب.

ب- انتقال في المكان: وهو الخروج من مكة "أم القرى"، تلك التي كان يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ببركة البيت العتيق، ولكنها كذبت صاحب الرسالة ﷺ وردّت الحق في عناد وتكبر، فكانت العقوبة كما يقول الشيخ الغزالي -رحمه الله- أن "حرم مشركو مكة الخير كله مذ جحدوا الرسالة وقعدوا بكل

صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويغنونها عوجاً<sup>(١)</sup>، فكان الخروج من "القرية الظالم أهلها" إلى قرية كانت "يثرب"، فصارت "المدينة المنورة" و"طيبة الطيبة"<sup>(٢)</sup>. والمكان الجديد إنما كان باختيار رباني لا باجتهاد بشري، ولقد حاول الرسول ﷺ أن يتدبر أمر المكان فذهب إلى الطائف -وهي إحدى القريتين العظيمتين في ذلك الزمان- ولكن يبدو أن تنافسها مع مكة لم يكن مقتصرًا على التجارة وتكديس المال، وإنما تعدى ذلك إلى التباري في القسوة وردّ الحق، فكان ما كان من صدور أهل الطائف وجحودهم، وكان ما كان من أحداث مهدت الطريق إلى المدينة. والانتقال من مكة إلى المدينة، لم يكن مجرد انتقال من مكان إلى آخر، وإنما انتقال من بنية اجتماعية إلى بنية أخرى. وهذا كان له تجلياته في تشريعات الوحي التالية على هذا الانتقال.

ف"مكة" كانت مُشكّلة أساسًا من المؤمنين وهم الأقلية الذين استجابوا لدعوة الرسول ﷺ، ومن المشركين وهم الأغلبية الذين ناصبوه العداء. أما المدينة فكانت الأغلبية فيها للمؤمنين الخُصّص "مهاجرين وأنصارًا"، معهم طائفة تظهر لأول مرة على مسرح الأحداث وهم "المنافقون"، إضافة إلى جماعات يهودية ذات نفوذ اقتصادي، وتعالٍ ثقافي بما لهم من تحكم في الأسواق، وبما بقي لديهم من ميراث النبوات السابقة وسط مجتمع عربي أُمي.

وهذا التغير في طبيعة المجتمعين، يتجلى في حديث القرآن بعد الهجرة عن المنافقين، وفصول كيدهم للحق من داخل الصف الإسلامي، وكذا الحديث عن أهل الكتاب وصفاتهم وصنوف كيدهم وخداعهم الديني (إخفاء حقيقة النبوة وأحكام الشريعة الموسوية)، ومكرهم السياسي والعسكري (تآمرهم على قتل الرسول ﷺ وتحالفهم مع المشركين والمنافقين).

**ج- انتقال في البنية الاجتماعية:** ونعني بالبنية الاجتماعية؛ تركيبة المجتمع الإسلامي بما لها من خصائص مادية ومعنوية. فالهجرة غيرت ملامح الجماعة الإسلامية الأولى، وطبيعة علاقاتها بذاتها وبما يحيط بها، ويمكن أن نتبين هذا التغير من خلال المظاهر التالية:

• **الانتقال من الضعف إلى القوة:** فلئن كانت المرحلة المكية اعتمدت على الإيمان قوةً وحيدة تمنح صاحبها

القدرة على التحمل والمواجهة، فإن هذا الإيمان أضيف إليه في المرحلة المدنية قوة التضامن الأخوي والمنعة المادية التي وفرها الأنصار لإخوانهم المهاجرين وفاءً بما عاهدوا عليه الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية.

• **انتقال من الجماعة إلى الدولة:** وهذا كان له أثر بالغ في السلوك السياسي للفرد العربي، فأول مرة، تنشأ في تاريخ العرب دولة تقارب في مفهومها الأشكال الحضارية للدولة، بعد أن عرف في تاريخه القديم أشكالاً باهتة للدولة، لا تعدو أن تكون تابعة لإحدى القوى الأجنبية.

• **الانتقال من أفق القبيلة إلى أفق المجتمع والأمة:** وهي نقلة جبارة في ميزان الأمم والشعوب، فأن يخرج الإنسان العربي من سجن القبيلة وتقاليدها وقوانينها، لا ليكون صعلوكاً -كما فعل بعض شعراء العرب- وإنما ليبنى ما هو أرقى من القبيلة وروابطها. فهذا يتطلب تغييراً عميقاً على مستوى الأفكار والتصورات، بل على مستوى الأحاسيس والعواطف أيضاً. وبكلمة موجزة، يتطلب إنساناً جديداً لا صلة له بإنسان الجاهلية، وهذا ما فعله النبي ﷺ ودأب عليه منذ لحظة نزول الوحي؛ بناء الإنسان الجديد.

وهذا الانتقال النبوي بمظاهره الثلاثة، يجسده رمزياً ما فعله الرسول ﷺ ساعة مقدمه إلى المدينة، إذ بادر إلى بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وكتابة الوثيقة، وهي إجراءات ثلاثة تترجم الأسس التي أرساها عليه الصلاة والسلام للمجتمع الإسلامي؛ "صلة الأمة بالله، صلة الأمة ببعضها البعض الآخر، صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون دينها"<sup>(٣)</sup>.

### ثانياً- القراءة على مستوى المنهج

السنة -والسيرة جزء منها- تشكل الجانب التطبيقي للمنهج الذي أنزله الله تعالى في كتابه، فلا مناص للمسلم الذي يتبغى الاستهداء بهدي النبوة، من ضرورة اقتفاء المسلك النبوي، استجابة لأمر الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

والاقتداء يصبح أكثر ضرورة بالنسبة للحركات التي تبتغي التغيير رافعة شعار الإسلام فكرة ومنهجاً، وتطمح للوصول إلى ما وصل إليه النبي ﷺ قبل قرون بفكرته ومنهجه. فالتاريخ والواقع، كل منهما يعلمنا أن حسن النية وجمال



الشعارات لا يغنيان في حركة التغيير الاجتماعي شيئاً ما لم يصبحهما فكر سديد ورؤية واضحة ووعي عميق بطبيعة المشكلة المراد تغييرها، ومرآة الطريق التي ينبغي قطعها كي نصل إلى الحل، وهذا ما توفره لنا الدراسة الحكيمة لمسلك النبي ﷺ في الحركة والتغيير.

وحدث الهجرة يضع أمامنا معالم بارزة، هي لكل متدبر منارات هادية، تعصمه من الضلال والزلل عند اختلاط السبل وتشعب المسالك والمناهج. فقراءة الهجرة من زاوية المنهج التغييرية تعطينا المعالم التالية:

١- التكوين والإعداد قبل التمكين: فقد مكث النبي ﷺ أكثر من عقد في مكة، يربي الصفوة الأولى ويعدّهم ليكونوا حَمَلَةَ المنهج الجديد فكراً وممارسة. وما أظن أن أحداً منهم طاف بخاطره أنه سيخرج يوماً من مكة ليني دولة في المدينة، أو أنه سيعيش ليرى ثمرة تضحياته ومعاناته.

فتكوين الصفوة القادرة على أن تتحرك لإحداث التغيير، أمر جوهري يكاد يكون من السنن الاجتماعية الثابتة التي تحكم حركة كل المجتمعات عبر التاريخ. فما من ثورة أو تغيير إلا وكان الدور الأساس فيها لصفوة أو نخبة آمنت بمبدأ التغيير، وتمثلت الفكرة دون تفكير في مغنم أو مكسب.

ومن هنا لا يمكن أن نفصل حدث الهجرة عما سبقه، فهو كالنتيجة له، إذ كان بالإمكان أن تتم الهجرة في اللحظة الأولى التي كذب فيها أهل مكة بالحق دون حاجة إلى تلك السنوات من العذاب والآلام، ولكن الأمر لم يكن عبثاً، وإنما اقتضته حكمة الله تعالى في جعل التكوين والإعداد مقدماً على التمكين.

وإنه لدرسٌ بليغ للحركات الإسلامية التي تريد التغيير من منطلق الاقتداء بالمنهج النبوي، ثم في لحظة من لحظات السير، تغفل عن هذا المعلم الخطير فتتشوف إلى تمكين لما تُعدُّ له بعدُ عُدَّتَه، إذ يُتبعها طول الطريق أو يغريها بريق مكسب سياسي عارض، فتندفع ضاربةً بهذه السنة عرض الحائط، فتكون النتيجة تجارب هزيلة أو مشوهة، تكون -في أغلب الأحيان- حجة يعترض بها العلمانيون والأنظمة المستبدة على فشل المشروع الإسلامي من الناحية المبدئية، وعلى عدم صلاحية الإسلام ليكون منهجاً يقود الحياة.

وهذا الخلل يستوي في الوقوع فيه أصحاب المغالبة الذين لا يصبرون على معاناة الطريق، أو تغرهم قوة جماهيرية

ضعيفة الصلة بالفكرة والمنهج، فيرومون اختصار الطريق بانتهاج العنف للوصول إلى السلطة، فيبدأ عملهم "جهاداً" وينتهي ببندقية عمياء وفتنة تحصد الأبرياء، وترسخ سلطان أهل الباطل والفساد، إذ تعطيتهم حجة جديدة لتسويق أنفسهم في الداخل وإدامة دعمهم من الخارج. وأصحاب المشاركة الذين تبهرهم معرفتهم الجديدة بآليات الحكم وطرق الوصول، أصحاب السلطة التي صاروا في الظاهر جزءاً منها إلى سلطتهم وطرق بقائهم فيها، فيحاولون -بوعي أو بغير وعي- تقليدهم واقتفاء آثارهم، وإن أضفوا على ذلك صبغة "التأصيل"، متخذين من مقولة "فقه الواقع" آلية لتبرير ما لا يبرر في أكثر الأحيان.

وإن وقع هؤلاء وأولئك في هذا الخلل كان الإفلاس وكان الفشل، لأن السنن لا تحابي أحداً. فإن تشوّف الإنسان إلى التمكين قبل التكوين، إن هو إلا ضرب من العبث وشكل من أشكال الهزل في موطن الجد. والحياة لا يصنعها العابثون ولا يقودها من يختلط عليهم الجد مع الهزل.

٢- رجال المبدأ قبل رجال الدولة: وهو درس آخر من دروس الهجرة على مستوى منهج التغيير، يتعلق بطبيعة الإنسان الذي كَوّن لتقوم على كاهله أعباء الدولة الناشئة. فإذا كانت المنهجية الإسلامية، تقوم أساساً على مركزية الإنسان من حيث كونه هو المخاطب بالمنهج وهو المطبق له في الواقع، فإن الهدف السياسي من حركة التغيير والانتقال من طور الجماعة إلى طور الدولة، يجعل من التركيز على الإنسان مسألة غاية في الأهمية والخطورة.

والهجرة تنبها إلى هذا المعلم المهم، إذ يتضح -من خلالها- كيف أن النبي ﷺ ركز على تكوين رجل المبدأ قبل أن يفكر في رجل الدولة. وما النماذج -من رجال الدولة الأفذاذ- الذين ظهروا بعد ذلك على امتداد المرحلة النبوية ثم مرحلة الخلافة الراشدة، إلا ثمرة لهذا المسلك النبوي الحكيم. فهل كان بالإمكان أن يعلن النبي ﷺ عن تكوين دولة في المدينة، قبل أن يتمكن من إعداد الرجال الذين رباهم على المبادئ في مكة؟

فالدولة بما لها من مغريات السلطة، تتحول على أيدي من لم تتمكن المبادئ منهم ساحةً تُمارَس من خلالها كل أشكال المفاسد السياسية والاقتصادية وحتى الدينية.

للسلطة سلطانها على النفوس الضعيفة، ولا يوجد أضعف ممن يرفع شعاراً دون أن يصبح ذلك الشعار حقيقة ماثلة في ذهنه، ممتزجة بخلجات ضميره، متماهية مع سلوكه، وأنى له ذلك إن لم يترب عليه؟!

فتأخير الحديث عن "الدولة" إلى أن تكتمل التربية على المبدأ، درس آخر بليغ تنبهنا إليه الهجرة حتى لا تقفز الحركات الإسلامية - وقد فعل البعض ذلك - في فراغ، ثم ترد إلى أرض الواقع بتجارب مشوهة وعناصر أفسدتهم السلطة، وباعدت بينهم وبين الشعارات التي عرضوا أنفسهم بها أول مرة على الناس، ولا يزالون - وهذه من غرائبهم - يرفعونها.

**٣- الهجرة في بعدها الأخلاقي والرمزي:** وهذا معلّم لا ينفك في حقيقته عن المعلمين السابقين، حينما نجد الرسول ﷺ ينبه بشكل واضح على استمرار الهجرة من خلال سلوك المسلم في كل زمان ومكان.

فلئن كانت الهجرة الأولى انتهت بفتح مكة فقال ﷺ "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" (متفق عليه) ففاز بشرف الوصف بالمهاجر من فاز، فإن الهجرة في بعدها الرمزي والأخلاقي ذي الصلة بالمنهج، باقية مستمرة ما دام هنالك مسلم يسعى في كل زمان ومكان للتحرك وفقاً لذلك المنهج. وهي الهجرة التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَالرُّجُزُ فَاهُجُزٌ﴾ (المدثر:٥)، ويؤكد بها النبي ﷺ بشكل صريح: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" (متفق عليه). فهي حركة دائبة للابتعاد عن كل سلوك منهي عنه، إن على مستوى حركة الفرد أم حركة المجتمع، وأياً كان مجال تلك الحركة دعوة أم سياسة، سلطة أم معارضة... ولعل البعد الرمزي والأخلاقي في علاقة المسلم بالمنهج، هو الذي نستشفه من ربط الحديث عن نصرة الرسول ﷺ/ منهجه، بحادثة الهجرة في الآية التي ذكرناها من قبل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة:٤٠).

### ثالثاً- القراءة على مستوى الاعتبار

ونعني بهذا، كيف نجعل من الهجرة نقطة انطلاق جديدة للأمة؟ وهذا هو مستوى الاعتبار الذي دعانا إليه القرآن كي نقرأ من خلاله الأحداث.

والفرق بينه وبين المستوى الثاني، أننا في هذا المستوى نحاول أن ننظر إلى الحدث من زاوية ربطه بحركة الأمة ككل، وهي تحاول استئناف حركتها واستعادة حضورها مرة

أخرى في التاريخ.

ففي هذا المستوى تنبها الهجرة إلى عنصرين مهمين:

١- أن تكون حركتنا استثنائاً لا بداية صفرية؛ فكما كانت الهجرة خطوة غير منقطعة عما سبقها، وإن أحدثت تغييراً عميقاً في مسيرة التاريخ الإسلامي، فحري بمن يسعى لإعادة الأمة أن لا يفكر في البدايات الصفرية، وإنما عليه أن ينطلق من مفهوم الاستئناف.

٢- أن نتمتع في معرفة المنهج الذي نسعى للتغيير من خلاله، وأن نتمثله تمثلاً متكافئاً مع أزمة الأمة؛ ذلك أن الهجرة تعلمنا كيف أن النبي ﷺ ربّى أصحابه الكرام على المنهج معرفة وتمثلاً... معرفة بحيث سُبقت الهجرة بإرساء الأسس العقيدية والمعالم الكبرى للإسلام من خلال القرآن المكي، والعقيدة هي روح المنهجية الإسلامية أو -إذا شئنا- جوهر المشروع الإسلامي الذي طرحه النبي ﷺ بديلاً للواقع الجاهلي. فكانت المعالم العقيدية واضحة في عقول ونفوس الصفوة الأولى من هذه الأمة، ثم كان التمثيل لتلك التصورات الجديدة في الواقع بحيث أنشأت إنساناً آخر، حاملاً للمشروع، قادراً على مواجهة التحديات.

فالحركات التي تدعو إلى النهوض بالأمة وتغيير واقعها اليوم من منطلق المرجعية الإسلامية، عليها أن تعمق فهمها لهذه المرجعية حتى تكتمل لديها الرؤية الواضحة، ثم عليها -في المقام الثاني- أن تبني الإنسان الجديد القادر على منزلة الواقع بتحدياته، أي إنزال تلك الرؤية على الواقع، الإنسان الذي يحقق في نفسه الهجرة بكل أبعادها حتى يحدث نقلة فاصلة في حياة الأمة، تكون بالفعل فاصلاً بين مرحلة التخلف ومرحلة الانطلاق من جديد، كما كانت الهجرة نقطة انطلاق للأمة نحو آفاقها التأسيسية. ■

(١) كاتب وباحث جزائري.

الهوامش

(١) فقه السيرة، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة (الجزائر)، دت، دط، ص: ١٥٠.

(٢) عن جابر بن سمرة قال: كانوا يسمون المدينة يثرب، فسمّاها رسول الله ﷺ "طيبة" (أخرجه مسلم)، (١٢١/٤).

(٣) فقه السيرة، ص: ١٨٨.





## من حقوق الحيوان في الإسلام

هـ

خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك... شأنها في هذا شأن أمة الناس". من هنا نعلم أن للحيوان حق الرحمة كحق الإنسان، وذلك لما له من خصائص وطباع وشعور لا تقل عما لدى الإنسان، وإلا فلا معنى لكلام رسول الله ﷺ -وحاشاه- وهو يستوصي بالحيوان خيرًا حتى ولو كنت قائده للموت حين قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحداكم شفرته وليرح ذبيحته" (رواه مسلم).

### تسمية سور القرآن بأسماء الحيوان

وفي إشارة لطيفة بموضوعنا هذا، نجد القرآن الكريم يحمل فيما يحمل سورًا بأسماء الحيوان؛ وذلك كالبقرة والأنعام والنمل، ولم تكن هذه التسميات عبثًا، وإنما سميت بها ليلفت

هل يا ترى كان للحيوان موقع في منظومة الأخلاق الإسلامية يومًا؟ وهل نال من الحقوق والرحمة به نصيبًا يليق به باعتباره مخلوقًا من مخلوقات الله في الأرض؟

جوابًا عن هذه الأسئلة، تتقدم آية عجيبة من كتاب الله ﷻ لتخبرنا أولاً أن عالم الحيوان كعالم الإنسان تمامًا بتمام، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨).

يقول سيد قطب -رحمه الله- معلقًا على هذه الآية في "في ظلال القرآن": "إنه ما من دابة تدب على الأرض -وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقریات- وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء -وهذا يشمل كل طائر من طير وحشرة أو غير ذلك من الكائنات الطائرة- ما من

إذا كانت البشرية - قديمًا  
وحديثًا - ذاقَت وما تزال  
تذيق الناس ألوان التعذيب  
والنقتيل والمهانة، فإن  
الإسلام قد كرم هذا الإنسان  
أحسن تكريم، بل إنه لم يقف  
عند هذا، بل نجده قد حرم  
تعذيب الحيوان وجعل ذلك  
موجبًا من موجبات عذاب  
الله تعالى له.



من حقوقه حين قال: لو أن بغلة عثرت بشط العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لَمْ تَصْلَحْ لها الطريق يا عمر.  
إنه لسبق حضاري رفيع أن نجد من ينادي بهذا الحق للحيوان في هذه الأمة منذ خمسة عشر قرنًا، أما حق الأكل والشراب والرعاية فمكفول بكل تأكيد.  
وإن تعجب، فعجب كله أن هذا النداء من الفاروق رضي الله عنه، صدح به عاليًا في وقت كان الإنسان يُستعبد وتداس كرامته عند الأمم الأخرى كالفرس والروم وغيرهم... ولا يتمتع بأدنى حقوقه التي تليق بكرامته كمخلوق كرمه الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠). بل إن رسول الله ﷺ ساعة القتال كان يستوصي أصحابه بالناس والحيوان والنبات خيرًا، يقول ﷺ: "اغزوا باسم الله ولا تقتلوا شيخًا هرمًا، ولا عابدًا في صومعته، ولا صبيًا ولا امرأة، ولا تهدموا جدارًا، ولا

سبحانه انتباهنا إلى الاهتمام بالحيوان، لكونه أولاً خلقًا من مخلوقات الله، وثانيًا لأنه مصدر من مصادر رزق الله لنا.  
وقد أعلن رسول الله ﷺ هذه الحقيقة الكبرى حين قال: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها" (رواه الترمذي).  
فالحيوان - حسب منطق الحديث الشريف - لا ينبغي أن يباد أو يقتل أو يعتدى عليه وإن كان يؤذي الإنسان أحيانًا.  
والرسول الكريم ﷺ يشير هنا إلى الحقيقة القرآنية التي سجلها القرآن في قوله تعالى السالف الذكر: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣٨).

#### الطريق السوي حق من حقوق الحيوان

ومن منا لم يسمع بقولة الفاروق عمر رضي الله عنه وهو يشرع فيها لحقوق الحيوان حتى جعل الطريق المعبد السوي حقًا واجبًا



تغوروا بئراً، ولا تخربوا عامراً، ولا تقطعوا شجرة يستظل بها ابن السيل، ولا تذبحوا بهيمة لغير مأكلة" (رواه أبو داود).

بهذه القيم والأخلاق الرحمة التي سادت عالم الإنسان والحيوان على حد سواء، فتح المسلمون قلوب العباد قبل حدودهم، فدانت لهم الدنيا طواعية، حتى قال المفكر الفرنسي "غوسفان لويون" في "حضارة العرب" بعد قراءة متأنية دقيقة لتاريخ الإسلام: "ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل من العرب المسلمين". ولندع -للحظة- شواهد من هذا التاريخ الإسلامي تنطق بنفسها وتشهد على سمو أخلاقنا مع الحيوان.

### رحمة النبي ﷺ بالحيوان

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حمرة (طير يشبه العصفور) معها فرخان لها، فأخذناها فجاءت الحمرة تعرش (تفرح بجناحيها)، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" (رواه أبو داود).

لقد أحس رسول الله ﷺ بما أحست به تلك الحمرة من حرقة ولوعة، فدعا إلى الرفق بها بإرجاع فرخيها إليها حتى تسكن ويهدأ روعها، إنها من أمة الطيور لها حقها من الرفق والرحمة كحق الإنسان. وإن الرحمة لخلق عظيم يدخل صاحبه الجنة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال لصحابته رضي الله عنهم يوماً وهو يحثهم على الرحمة بالحيوان: "بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل، لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له"، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال ﷺ: "في كل ذات كبد رطبة أجر" (رواه البخاري).

قد يحتقر الواحد منا هذا الصنيع ولا يوليه كبير اهتمام في زحام الحياة، لكن الله سبحانه قدره وخلد ذكر ذلك الرجل فرحاً بما صنع. وكيف لا يلتفت سبحانه لهذه الرحمة من بشر وهو سبحانه الرحيم الرحمن القائل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، بل إنه وصف نبيه المصطفى الكريم بكونه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). لذا وجدناه ﷺ في كل مرة يذكر أصحابه بخلق الرحمة: "الراحمون يرحمهم الرحمن" (رواه الإمام أحمد). وفي حديث آخر شديد الصلة بالرحمة والرفقة يقول النبي

ﷺ: "من أعطي الرفق فقد أعطي حظاً من خير الدنيا والآخرة" (رواه الإمام أحمد).

هكذا نجد خلق الرحمة بالحيوان عنوان حضارتنا الإسلامية التي كان لها قدم السبق في ذلك، بل إنك لو اتبعت تشريعنا في هذا المجال لوقفت على تراث زاخر عظيم ينطق رفقاً ورحمة، فها هو ذا نبي الله سليمان عليه السلام تستوقفه نملة بواد فيتبسم إليها ضاحكاً، ويجلس إليها تحاوره ويحاورها بوحى من الله تعالى، لأنها -وأمتها- خلق من خلق الله، بل أنه سبحانه سمي -كما سبقت الإشارة- سورة باسمها ليخلد ذكرى هذه النملة وأمتها، ويجعل كلامها متعبداً به إلى يوم القيامة.

### القسوة على الحيوان موجبة لعذاب الله

وإذا كانت الرحمة بالحيوان خلقاً يوجب المغفرة -كما سبق- فإن القسوة عليه في المقابل تدخل النار. فقد أخبر رسول الله ﷺ قائلاً: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض" (رواه البخاري).

فإذا كانت البشرية -قديمًا وحديثًا- أذاقت وما تزال تذيق الناس ألوان التعذيب والتقتيل والمهانة، فإن الإسلام قد كرم هذا الإنسان أحسن تكريم، بل إنه لم يقف عند هذا، بل نجده قد حرم تعذيب الحيوان وجعل ذلك موجباً من موجبات عذاب الله تعالى له. فهذا رسول الله ﷺ حين رأى قرية نمل قد أحرقتها بعض الصحابة قال مستنكراً: "من أحرق هذه؟" قلنا: نحن، قال: "إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" (رواه الطبري والحاكم). بل إنك لتعجب حين تعلم أن إضجاع الحيوان للذبح قبل أن يعد المرء شفرته، قسوة في دين الله لا تجوز. فقد قام رجل بين يدي رسول الله ﷺ وأضجع شاته للذبح وشرع يحد شفرته، فقال له النبي ﷺ: "أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟" (رواه الطبري والحاكم).

إنها لمشاعر إنسانية تفيض نبلاً ورحمة، ما عرف التاريخ مثيلاً لها إلا في ظل شريعتنا الغراء التي تحس بكل ما يحس به أي مخلوق. ولكي تزداد يقيناً، أدعوك لنصغي جميعاً لرسول الله ﷺ وهو يقوم سلوكاً منحرفاً أساء إلى حيوان أبكم أرهقه صاحبه فوق ما يطيق؛ فقد دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح دموعه ثم قال: "من صاحب هذا الجمل؟" فقال صاحبه: أنا يا رسول الله، فقال له

النبي ﷺ: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدبّه" (رواه الإمام أحمد).

فكما أن تحميل الحيوان فوق طاقته منكر قد حاربه الإسلام واستنكره، نجده كذلك قد حرم -في إطار حقوق الحيوان- إجاعته وتعريضه للهزال والضعف والتلف. فقد مر رسول الله ﷺ ببهيمة قد لصق ظهرها بطنها، فهاله ما رأى من خرق لحقوق هذا الحيوان، فانتفض غاضباً وقال: "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة" (رواه أبو داود). ومما يستفاد من هذا الحديث أن النفقة على الحيوان واجبة على صاحبه، ومما استخلصه الفقهاء كذلك بدورهم أنه يجبر كل من امتنع عن إطعام الحيوان على بيعه أو الإنفاق عليه أو ذبحه.

ويذكر التاريخ كذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يسير يوماً وهو يتفقد أحوال الرعية، فرأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فهاله ما رأى من إساءة بالغة في حق شاة بكماء فقال له: ويلك، قدها إلى الموت قوداً جميلاً. ومما قرره فقهاؤنا من حقوق للحيوان، أنه إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص، وجبت نفقتها عليه إذ لم تقدر على الانصراف.

هذا غيض من فيض مبادئ الرفق بالحيوان في تاريخنا، وتلك أمثلة على ذلك كواقع تطبيقي لرعايته وعدم الإضرار به ومنع الأذى عنه، حتى صار قانوناً بين الناس عدم تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها أثناء السير، أو إيقافها في العراض وعلى ظهورها أحمالها، كما منع السماح لأصحاب الدواب بإلجامها بلجام ثقيل أو نخسها بمقرعة من حديد في أسفلها.

### الرفق بالحيوان عنوان حضارتنا

فهل تجد أمة من الأمم بلغت هذا المستوى من الرفق والرحمة بالحيوان في غابر الأزمان غير أمة الإسلام؟ ولعل أرق وأصدق مثال يدل على سمو تلك الروح لدى حضارتنا أن نجد صحابياً جليل القدر كأبي الدرداء الذي كان له بعير فيقول له عند موته: "يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك، فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك". وأن نجد كذلك في منظومة القتال والحرب في الإسلام، أنه يحرم حرق الزرع وقلع الشجر وعقر الدواب إلا ما كان لحاجة.

بل إن المرء ليحار وهو يسمع للإمام أبي إسحاق الشيرازي الذي كان يمشي في طريقه ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ قائلاً له: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه؟

وإن تستغرب، فالغربة كلها في أن تجد صحابياً جليلاً وهو عدي بن حاتم الذي تعود أن يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات لنا ولهن علينا حق.

وتتويجاً لأخلاق الرحمة والرفق بالحيوان، انتشرت في بقاع العالم الإسلامي أوقاف تخص الحيوان وتهتم برعايته وتطبيبه، كما وجدت أوقاف لرعي من عجز منها وكبرت سنة فسميت "مروجاً خضراء". وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سبق هذه الأمة إلى الرفق بالحيوان قبل أن تدعو أي أمة لذلك. ولمن أراد أن يزداد يقيناً، فليصغ إلى رسول الله ﷺ وهو يعلن جهاراً نهاراً إلى الإنسانية جمعاء، عن حق من حقوق الحيوان حين قال: "لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي" (رواه الإمام أحمد). فالجلوس طويلاً على ظهر البعير وهو واقف، حرام في دين الله تعالى، لأنه اعتداء على بهيمة تحس لكنها لا تنطق.

كذلك يحرم التلهي بالبهيمة والطير في الصيد عبثاً، مصداقاً لقول النبي ﷺ: "من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة" (رواه النسائي). إنه دين كله رحمة ورأفة شملت الإنسان والحيوان والجماد وكل شيء. بل إننا نجد مصطلح الرحمة يغطي القرآن الكريم كله بأشتقاقاته المتنوعة، إذ لا تكاد صفحة من القرآن الكريم تخلو منه، إن لم يكن لفظاً فدلالة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنظومة الأخلاقية لهذا الدين تقوم على مبدأ الرحمة. يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (الأنعام: ١٢)، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ... وغيرها من الآيات كثير. ■

(٢) كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي / المغرب.





## مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر

لعدّ القرآن الكريم ونصوص المصطفى ﷺ جزءاً من التراث الإسلامي المتنوع بنصوصه الفقهية والأدبية والفنية والسياسية وغيرها، وأطلقوا الأحكام بشكل عام على هذه النصوص جميعها. ويقتضي التحليل العلمي وضع الفروق الدقيقة بين هذه النصوص لأنها ليست واحدة، إذ تنقسم إلى قسمين:

الأول: النص المقدس (القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ).  
الثاني: النص المندس (التأجيات البشرية في صُعدٍ شتى).  
ونقصد بـ"النص المقدس"؛ النص الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث المصطفى ﷺ المتفق على صحتها. ولا نقصد بـ"النص المندس" الإيحاء بسلبيتها أو عدم نجاحها، إنما يتجه القصد إلى بيان أنها نتاج إنساني قابل للنقض والنقد والتحليل، وخاضع للتعليل وتعدد الآراء وترجيح ما يقترب من الصواب ونحو ذلك.

ونشير إلى مسألة مهمة، وهي أن النص المقدس لا يُعد تراثاً البتة، إنما هو نص اكتسب أهمية وخصوصية صالحة لكل زمان ومكان وليس مُنجزاً يُورَث، هو نص مُنح صفة

إن التوجه الفكري القاضي بوصف التأجيات الماضية بـ"السلبية" وإطلاق "الإيجابية" على التأجيات المعاصرة، هو توجه يحتاج إلى إعادة الفحص ثم النقد والتقييم، لاسيما وأن الفكر المعرفي والحضاري لا يتجزأ، وهو لا ينتمي لوطن معين ولا تحدّه حدود مرسومة.

تعالج ثنائيات "الأصالة والمعاصرة"، "التقليد والإبداع"، "التراث والحداثة" إشكاليات معرفية عدة، ومن خلالها تنوعت التوجهات الفكرية، وأصبح الحديث عن "الماضي والحاضر" معياراً فاصلاً لتصنيف المفكرين بين مقلد وحداثوي! والحقيقة تشير إلى غير ذلك، إذ لا يُسلم الفكر الحاذق مطلقاً بالتأجيات -سواء أكانت تراثية أو حداثية- دون فحصها ثم تحديد مواطن الخطأ والزلل فيها ويؤشر على بؤر الخلل، فضلاً عن تحديد مواطن الصحة وبيان الإبداع وسماته فيها. وتكمن الإشكالية الكبرى في بيان ماهية "النص التراثي" وتحديد معالمه. وفي هذا السياق، جنح بعض المفكرين

الخلود إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وما عدا ذلك فهو تراث معرّض للدرس النقدي. فالتراث منجزات زمنية تاريخية، صنعتها أجيال متعاقبة في ظروف معينة لا تؤخذ على سبيل الإلزام واللزم، إنما تؤخذ على سبيل النص والإرشاد، وعلى سبيل الفائدة والانتفاع، وتدخل في البناء المعرفي لهذه الأمة.

وعلى الانتباه إلى أن لكل عصر ميزاته في إشكالياته وفي حلوله أيضاً، ولا يصح علمياً وعملياً استدعاء الحلول الماضية الجاهزة لمعالجة المستجدات الحاضرة دون أعمال فكر وتوجيه إصلاح، إذ أحيطت الإشكاليات المعاصرة بهالة من التنوع والتعقيد، التي لا يصلح معها استعارة جاهزيات الآخرين، مع وجود إمكانية الانتفاع من تلك الحلول على سبيل الاستئناس والمعرفة بالشئ.

وانطلاقاً من سنة الكون في التطور والتغير، فإن العقل الإنساني منظومة فكرية متكاملة تتعرض للتغيير وللتطوير المستمرين، وهي متجددة بتقادم الزمان وتنوع المكان، وتكتسب النضج في ترتيب الأولويات، والابتكار المتواصل، ورسم الممارسات المناسبة في إطار ما يُعرض وما يُستجد من قضايا.

إن ثنائيات "الأصالة والمعاصرة"، و"التقليد والإبداع"، و"التراث والحداثة"، مرتبطة بحشد من ثنائيات أخرى مثل؛ التأصيل والتغريب، والتميز والتحيز، والإبداع والاتباع، والانفتاح والانغلاق، والإنتاج والاستهلاك، والنص المبدع والنص المجتر، التطابق والتناقض، العقلانية والاتباعية، الافتعال والاعتدال، التشكيل والتفكيك، الثوابت والمتغيرات، الخطاب التشددي والخطاب التجديدي... إلخ. وهي تعمل بشكل منهجي في بيان مسارات الممارسة والتطبيق، وفي تحديد المناطق المعرفية في التضافر والاتصال، والتجاوز والانفصال.

يتجه التضافر إلى إمكانيات الربط بين تفعيل النص التراثي وتشكيل النص الحداثي، انطلاقاً من نقاط التواصل بينهما، والمحددة بفكرة أن المنتج الإنساني هو منتج متسلسل متوالٍ يخضع لمسيرة تاريخية لا تنقطع... أما التجاوز فيتجه إلى قطع العلاقات والإرساليات كافة بين المنتج التراثي والحداثي بدعوة اختلاف التوجهين وعطب آليات الاستقبال لتنوع البعدين وتباينهما كلياً! وهذا مدعاة للنقد والتقييم والنقض عندنا، انطلاقاً من الوسطية الإسلامية التي ننتهجها

في تناول القضايا الفكرية ومناقشتها.

وعلى مناقشة مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر، ألا يغفل التوجه نحو الكليات في الفهم المعرفي الدقيق، الداعي إلى ممارسة التحليل والنقد، وبيان المكاسب وتنميتها وتحديد المزالق وتجاوزها، فضلاً عن عدم التوجه نحو الجزئيات في الحكم المعرفي القاضي بالتوقع في المعاصرة وقطع أو أصر مرجعيات النصوص الحضارية التي رسمت لها شموخها، ومنحتها مزية ومكانة بين الأمم آنذاك.

تتجه مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر إلى بيان أجندتها في مناقشة أسباب التقدم الحضاري الماضي والتراجع المعاصر، وتضع في برنامجها أولوية النظر في قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي، الذي سيمنحها أطراً مفتوحة للعمل والتحليل بعيداً عن عقدي "تضخم الأنا، والدونية" التي اصطبغت بها معظم نصوص المفكرين المعاصرين.

وتتناول قضية الميزان الزمني للمعطى العلمي مسائل عدة، تبدأ مع خصوصية النتاجات العلمية لعقلية تنتمي لزمانها، ولا تنتهي عند عمومية الفكر العابر للحدود والمتجاوز للذوات. إنها قضية تملك حساسية بالغة في الطرح والتناول، وتتسم بمعطيات تشخص الداء وتمنح الدواء.

وإذا ما كُتب لهذه المفاهيم أن تشتغل في هذا الإطار الفكري، فإننا سنحصّد إمكانيات معرفية تسهم في بلورة التشكيل الحضاري في المستقبل، وتعين في إعادة صياغته بما يخدم التوجهات العقلانية المعاصرة والاستقبالية بما ينسجم مع رسالة الوحي، وسيظهر أثر ذلك في مسيرة النهضة الإسلامية الوسطية المنشودة بشكل عياني تطبيقي، بعد أن مورست بحقها في زمن، خلا تنظيرات لمشاريع تبنت شعار النهضة ومارست إجراءات التقليد والاتباع، فظهر جلياً التناقض بين الفعل والممارسة والتطبيق، واتجهت إلى أرشيف الإنسانية بعد أن عفا عنها الزمن والفكر.

ولا يتسع البحث هنا لسرد تلك التجارب فهي ممتدة وكثيرة شملت معظم أصقاع البلاد الإسلامية من العراق إلى بلاد الشام إلى بلاد المغرب العربي، لكنها وبشكل عام حملت بذور الإصلاح ونية التغيير، وأرادت أن تسهم في إحياء نص وبناء فعل، لكن المشكلة كُمنت في تغافل أو تناسي ما أشرنا إليه في مراعاة "الميزان الزمني للمعطى العلمي"، فضلاً عن مشكلة النظر بعقول الآباء



والأجداد. فهُمْ وإن أسهموا في البناء المعرفي الحضاري الإسلامي وقدموا ثمارهم العلمية التي تلذذ بها وانتفع منها الدارسون عبر عصور خلت، إلا أنها أصبحت غير منسجمة ومتطلبات العصر وتنوعاته وتشعباته. وأؤكد أن حديثي هنا، منصب بشكل أساس على التناجات الإنسانية الخاضعة للتغيير، وعلى الفكر المعرض دوماً للتنمية والتطوير. لذا بات لزاماً على أولي الفكر والاجتهاد، أن ينظروا من خلال عندياتهم، وأن يسهموا في البناء الحضاري الإسلامي المعاصر وفي مشروع نهضته، انطلاقاً من احتياجات العصر مع الاستئناس والانتفاع من معطيات الآباء والأجداد على سبيل التحليل والنقد وبيان المكاسب والمزالق، وليس على سبيل التسليم والتقليد.

وبهذا المنطلق، ستكتسب مفاهيم النهضة الإسلامية ميداناً جريئاً في مناقشة قضايا عدة، أخذ منها الخلاف مساحة زمنية استهلك الجهود واستنفر الطاقات. ومن تلك القضايا، مزية الأحكام التي تُطلق على المنجز التاريخي بين موضوعيتها وتحيزاتها، ومعرفة هل أن التراث هو خير كله وأن الحداثة هي شر كلها، والسؤال العكسي صحيح أيضاً، وهل تعدّ المعاصرة شرطاً للنشاط العقلي، وأن الأصالة شرط لصدقية الفكر وصلاحيته العمل، ثم بيان مسارات الائتلاف والاختلاف بين الأقوال والأفعال للجهود التاريخية المبذولة في البناء المعرفي الحضاري الإسلامي، لاستثمار منجزاتها، ولتجاوز عثراتها، فضلاً عن دراسة ظاهرة "التوافق في الرؤية" التي اتسمت بها تناجات الحضارة الإسلامية. وتشير هذه الظاهرة إلى التوافق على تحديد الهدف المنشود من الإبداع العلمي في شتى مجالاته، والمحدد بوضع لبنة معرفية في البناء الكلي للحضارة الإسلامية. بمعنى أن ظواهر الإبداع كانت جمعية ولم تكن فتوية أو شخصية.

وعلى معرفة أن ثنائيات مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي لا تشغل لوحدها، إذ هي مصفوفة في نظام ثقافي حياتي متكامل يشمل التوجه السياسي، والنتاج الجماعي الشعبي، والمنجز الاقتصادي. فالنهضة لن تتجسد واقعاً عياناً دون توحيد -أو على الأقل تقارب- بين الخطابين السياسي والثقافي، لأن انفصالهما يؤدي إلى انفصام الطرح التنظيري لمشروع النهضة عن الممارسة التطبيقية على أرض الواقع بسبب الحاجز السياسي، وما أشد وقعه وتأثيره في البلاد الإسلامية.

كما ستضطلع هذه المصفوفة بمهمة إعادة ترتيب الأفكار والمسارات المعرفية، والتبشير بثقافة الإنتاج ونبذ ثقافة الاستهلاك، وبيان أن العصور العلمية ليست ملكاً لأحد، وبهذا يمكن غربلتها بما يتفق مع توجهات مشروع النهضة. وجدير ذكره أن التطلع لبناء مشروع نهضوي إسلامي معاصر من هذه الجهة أو تلك، لا يعني مطلقاً اكتسابه الحقيقة كلها وامتلاكه أسس الصحة في الفعل والعمل، إنما يشير إلى اجتهاد فكري قد يصيب في إجراءاته وقد يخطئ وهذه هي مزية العمل الإنساني، والادعاء باكتساب الحقيقة كلها يوقع في شرك النقص والانتقاد والشطط.

وعلى الانتباه كذلك إلى أن الاشتغال في مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي المعاصر، لا يعني مطلقاً الانفتاح المفتعل على العالم على حساب ما عُلم من الدين بالضرورة. بمعنى أن يكون الانفتاح سبباً للتنازل عن الوصايا والتعاليم الدينية كما حصل عند بعض الدعاة الجدد، الذين رفعوا شعار التنمية والنهضة الإسلامية المعاصرة، لكنهم وفي الوقت نفسه تجاوزوا حدوداً ما كان ينبغي لهم تخطيها، ودقوا بخيارهم هذا أسفين الخلاف في مشروعية تبني العمل في هذا الإطار. فضلاً عن أن الاشتغال في هذه المفاهيم، يجب أن يتسم بالخصوصية والوسطية النابعة من الفهم القرآني والقاضي بكون الرؤية الإسلامية وأسسها العقدية هي المرجع في معرفة الصواب وتمييزه، وتأشير الخطأ والتنبيه من الوقوع فيه. وعندما يتحقق الاشتغال الفكري من خلال هذا المفهوم، عندئذ تكتسب الرؤية صفة المرجع والشاهد والقدوة الحسنة، انطلاقاً من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وجدير ذكره أن مفاهيم المشروع النهضوي الإسلامي تتجاوزها أطراف عدة، تبدأ من إشكالية مناقشة المنجز التاريخي، وصولاً إلى قضية تحيزات المدونة التاريخية نفسها وليس انتهاء بمسارات العقلانية المعاصرة التي تفرض أنماطها الفكرية بوصفها ضرورات حداثية يقتضيها الواقع المعيش. ويمكن الانتفاع في هذا السياق -ومن باب حديث الأمين المصطفى ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن أتى وجدّها فهو أحقُّ الناس بها" (رواه الترمذي)- من ميراث الحضارات والشعوب الأخرى؛ فكانت الحضارة الإسلامية في الأندلس معيناً ثراً، ونبعاً متدفقاً

بالمعطيات العلمية أضاءت ميادين أوروبا المظلمة آنذاك. ولنا في المنجز الإسلامي الحضاري مثال شاخص على ما ذكر، إذ منح النص الكريم مفاتيح اشتغال للعلماء المسلمين، ورسم لهم خصوصية تتسم بالموسوعية والابتكار وعدم الركون إلى التقليد، والحث على النظر المستمر والسياحة في الأرض، ودراسة حال الأقوام السالفة، لأخذ العبر، وتحفيز العقل على التفكير والتدبر والتأمل، وتقليب الأمور على أوجهها حتى يتبين الحق. وبذلك قدّم المنجز الإسلامي للعالم كلّ أسماء أسهمت في خدمة الإنسانية جمعاء، وأوضحت جوانب علمية كثيرة كانت غائبة عنها، والقائمة في هذا السياق تطول في الجانب الديني، والطبي، والهندسي، والفلكي، والاجتماعي، والتاريخي، والنفسي، والجغرافي، واللغوي، والبلاغي... إلخ.

إن الحديث عن النهضة الإسلامية المعاصرة وبيان مفاهيمها ليس حديثاً أنيئاً، إنما هو حديث متجدد بتجدد الظواهر والمعطيات على الصعيدين الإسلامي والعالمي. وقد برزت جهود طيبة في هذا المجال خلال نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ونادت محاولات محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وحسن البنا، وسيد قطب، ومالك بن نبي... وغيرهم، نادت الجهود المخلصة المحبة لدينها والمتجهة لرضا ربها، وحفزت الهمم المبدعة في سبيل فهم جديد للنص الديني ينطلق من قاعدة "ثبات النص وحركية المعنى"، ويتجه نحو احترام سيادة العقل ومعطياته، وخدمة الإنسانية، وتعظيم الدور الإسلامي الحضاري الذي بات العالم أجمع بحاجة ماسة لحلوله التي تنتظر من يُحسن تقديمها ويبلور نتائجها.

لكن مشروع النهضة الإسلامية محفوف بمطبات عدة، نظراً لاتساع تنوع الفكر الإسلامي وتشعبه بين معتقيه. وباتت هذه المطبات عوائق منعت المسار النهضوي، وأخرت بدورها إمكانات القيام بهذا العمل بشكل جماعي لا فتوي. ويمكن الحديث عن أهم المطبات التي تعتري مسيرة مشروع النهضة الإسلامية من خلال الآتي:

• من أخطر إشكاليات مشروع النهضة الإسلامية هو بعد منظري المشروع أو المشتغلين عليه، عن العلماء العاملين أصحاب الفتوى والاجتهاد. ويؤدي هذا البعد إلى تباين في المواقف وضعف في التأثير.

• مشروع النهضة الإسلامية من وجهة نظر طائفية. ويقود هذا الأمر إلى نقص في البناء الفكري، وعوز في بيان المقدمات، وفساد في استخلاص النتائج، ولنا في الطوائف مثال أكبر شاهد.

• تعد قضية استيراد الحلول الجاهزة، مثلًا يعوق مشروع النهضة الإسلامية ويؤخر قيامها، لأنه يعتمد على جاهزيات الفكر عند الآخر، وهي غير مناسبة بالضرورة للفكر الإسلامي لتباين خصوصية الطرح في كلا التوجهين.

• لا يمكن تقديم الدعوة إلى ولادة هذا المشروع أو إحيائه جملة واحدة، بل لابد من الاحتكام إلى فقه الأولويات، وبيان مسارات الحاجة المعرفية، وتقديم الأهم على المهم، والعمل وفق تدرج علمي مدروس.

• تباين الأساليب الداعية إلى هذا المشروع بين المسلمين في الشرق وفي الغرب، ويعود سبب ذلك إلى تباين المشكلات واختلافها.

• تباين الطرح النهضوي لدى النخب الإسلامية المعاصرة، ويرجع سبب ذلك إلى التباين الفكري القسدي والموجه بمسار حزبي ضيق، أو مذهبي محدد، أو طائفي مقيت، أو ذاتي متضخم.

وفي الختام، نأمل أن نكون قد أسهمنا في بيان ما يعتري مفاهيم مشروع النهضة الإسلامية، من خلال تقديم رؤية نقدية توجيهية تقضي بضرورة إحياء الماضي واستلهام الدروس منه، وفحص منجزاته بشكل علمي ومنهجي، وعدم التقيد بها أو تقليدها، لأنها نتائج إنسانية تخطئ وتصيب. وتؤكد هذه الرؤية احتضان الحاضر والانتفاع من طروحاته، وتحليل معطياته وفق الأسس العقدية المتمثلة بنص القرآن العظيم وبسنة النبي الكريم ﷺ، مع تحفيز العقل على الاشتغال والابتكار والإبداع. كما تتجه هذه الرؤية إلى استشراف المستقبل وصياغة مفاهيمه، انطلاقاً من الإيمان بأن الرسالة الإلهية صالحة لكل زمان ومكان، وأن المشروع النهضوي المنبثق منها، جدير بخدمة الإنسانية وتقديم ما يصلح لها. وإذا ازدادت الرؤية الاشتغالية في هذا المشروع بما تقدم آنفاً، وتجاوزت المطبات التي تعتري مسيرتها، فإنها ستعيد مجدها الحضاري المتواري طيلة عصور خلت. ■

(٥) عميد كلية اللغات بجامعة المدينة العالمية / ماليزيا.





## العقل المؤيد بالإيمان عند النورسي أو اتصال الآيات والقيم

العاجل أو في الآجل، ويعرف الخير ويتركه مع علمه بنفعه وهو سر الابتلاء. ولهذا لم يكن امتلاك هذه الآلة وحده كافياً ليحقق ماهية الإنسان وسعادته، ما لم يؤيد بالإيمان الذي يحمل الكائن الإنساني على الفعل الخَيْر (فعل الاستخلاف). بل إن العقل الآلة، ما لم يستعمله الإنسان في طريق الخير

يعرّف الإمام النورسي العقل بأنه آلة تابعة لإرادة الإنسان بعد أن تُعَيَّن له الحق من الباطل والخير من الشر، فإنها -أي الآلة- لا تدخل لها في الفعل من حيث الاختيار. فالإنسان قد يعرف الشر بعقله ويأتيه مع علمه بضرره اللاحق له أو لغيره في

ي

المطلق أو في سبيل الله - كما يرى النورسي - "فإنه يتحول إلى عضو مشؤوم مزعج وعاجز، إذ يَحْمَلُكَ آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذٍ إلى درك آلة ضارة مشؤومة. ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله؟". وليس هذا الهروب سوى قطع للعقل، بما هو آلة إدراك للعالم عن الفعل النبيل والبناء في هذا العالم، بما هو الفعل نفسه إدراك للغاية التي من أجلها خلق الكائن الإنساني ولأجلها كُرِّمَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، حيث لا يستقيم وجود عبادة بدون عقل، ولا عقل بدون عبادة.

### مراتب الوجود ومراتب العقول

يذهب النورسي إلى أن "أهل الحكمة وأهل الدين وأصحاب العقل والنقل، متفقون ضمناً على أن الموجودات لا تنحصر في عالم الشهادة هذا، وأن عالم الشهادة الظاهر الجامد الذي لا يكاد يتفق مع إقامة الأرواح وتشكلها، قد تزين بهذا العدد الهائل من ذوي الأرواح والأنسام، لذا فالوجود لا يمكن أن يكون منحصرًا فيه، بل هناك طبقات أخرى كثيرة من الوجود، بحيث يصبح عالم الشهادة بالنسبة لها سائرًا متركبًا. وما دام عالم الغيب وعالم المعنى ملائمين للأرواح -كملائمة البحار للأسماك- فلا بد أنهما يزخران بأرواح ملائمة لهما".

عوالم بعضها فوق بعض، وعقول بعضها أيضاً فوق بعض، ومنزلة العقل المادي فيها لا تعدو منزلة خفاش "جيد الإبصار في ظلمات الكون المادي وما أودع الله فيه من أسباب، حتى إذا خرج من كهفه ذاك إلى حيث تسطع شمس حقائق الغيب عمى عمى مطبقاً، وأنكر أن يكون في الوجود غير ما وقع عليه حسه الكليل".

ولما تعددت مراتب الوجود وطبقاته، حتى كان الوجود الحسي أدناها ولا يمثل شيئاً أمام عظم الوجود عامة، كانت العقول أيضاً مراتب يوافق منها كل واحد مرتبة من مراتب الوجود. فعلى قدر تحقق الإنسان بواحد من هذه العقول، كان له الاطلاع اللائق بالمرتبة المطلوبة من الوجود المتواري خلف الحس. وهذه العقول تتدرج في القوة حتى يكون أضعفها هو العقل الحسي المجرد وأقواها هو العقل الإيماني المؤيد، وبينهما مراتب من العقل الشرعي المسدد.

وإن معارف المراتب العالية من الوجود الخارجة عن

الحس، يتلقفها العقل الإيماني المؤيد لمعات لا يستقيم تناولها بميزان العقل المجرد وقوانينه، بل إن اللغة نفسها تضيق فلا تتسع للتعبير عن هذه الحقائق المتوارية، و"عدم التعبير ليس علماً على عدم الوجود. فكما أن اللسان كثيراً ما يتقاصر عن أن يترجم عن دقائق ما في تصورات العقل، كذلك قد لا يتراءى بل يتغامض عن العقل سرائر ما في الوجدان، فكيف يترجم عن كل ما فيه؟".

وإذا كان هذا في سرائر الوجدان، فكيف بسرائر الأكوان مما هو كائن أو كان خصوصاً إذا تفاعلت النفس بهذه اللمعات، يقول النورسي: "لقد مازج هذه اللمعة شيء من الأذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق، لأن ما تجيش به المشاعر لا يراعي كثيراً قواعد العقل ولا يعبر سمعاً إلى موازين الفكر".

إنها حقائق الوجود حين تتأبى على الوصف، وتخرج عن طوق الترسيم كما قال النفري صاحب المواقف والمخاطبات: "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة".

### ارتقاء العقل

لقد أبان النورسي -رحمه الله- على أن منهج التربية في القرآن كما يعلي من قيمة العقل بما هو حاكم وسبب في رقي الإنسان وصناعة تطلعاته في الحياة، وبما يمنحه من قدرات على الابتكار والإبداع في دنيا الابتلاءات، فإنه في مسيس الحاجة لنفحة الإيمان تحفظه من المهالك وتجعله على أقوم المسالك. إذ العقل عند الإمام النورسي، في مسيس الحاجة لنفحات الرحمن والاتصال بالمطلق (الله) حتى يجد معنى حقيقياً لهذه الحياة، ويبقى على خط البناء والعمران لا الهدم والخسران. والبقاء على خط الاستقامة والبناء، يستلزم صراعاً مستمراً

مع خصوم الإنسان وأعدائه في الداخل والخارج على محور الابتلاء... ولهذا كان الإنسان دائم المراوحة بين الذكر والغفلة، "وعندما تهيج أحاسيس الإنسان، لا ترضخ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم، فيرجح عندئذٍ لذة حاضرة ضئيلة جداً على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنب ضيقاً جزئياً حاضراً أكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجلاً. ولما كانت الدوافع النفسانية لا ترى المستقبل بل قد تنكره -وإن كان هناك حثاً لها من النفس وعوناً- فإن القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان فيغلبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ



## العقل مفتاح الكنوز الخالدة

حتى يكون العقل مفتاحًا للكنوز عند الإمام النورسي -رحمه الله- ينبغي أن يرتبط بالقرآن الكريم، وبتصوره الشمولي الذي يتحدث أول الأمر عن العقل بما هو فعل القلب، وليس مفصولاً عنه. بل الممارسة العقلية في أجلى صورها تكون من هذا المنطلق الرباني إشعاعات قلبية مهتدية بهداية القرآن، وهذا معنى قول النورسي: "نور العقل يشع من القلب".

فلا إشعاع للعقل حتى يكون القلب مصدره الذي يخرج مخرجاً إيمانياً، حيث يجمع العقل المؤمن آئذ بين قراءتين في سهولة ويسر وانسجام ووثام؛ قراءة كتاب الله المسطور، وقراءة كتاب الله المنظور "للخروج من إसार الأمية بكل أشكالها ومعانيها... كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه".

والعقل المفتاح عند النورسي، عقل متجاوز باستمرار لقشور الحكم إلى لب الحكمة، فهو مفتاح رائع، "بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية، فأيما ينظر صاحبه وكيفما يفكر، يرى الحكمة الإلهية في كل شيء وكل موجود وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة".

ويشترط النورسي حتى يكون العقل مفتاح الكنوز، أن يتحلى بالتوحيد، حتى يخرج من الوحشة والخوف والضعف، ذلك أن "التوحيد هو نفسه أوضح برهان وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه إذا عُرف أن صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها ظلال وتجليات وعلامات لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزه لذلك الصانع الواحد الأحد، لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه. بينما إذا لم يُعرف الصانع الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لا شعور لها وإلى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لأنه فَقَدَ مفتاح تلك الكنوز الخالدة".

## منطق السببية والعقل الملكي

يتحدث النورسي عن عبدة الأسباب، والذين يحيلون الخلق

ارتكاب الكبائر ناتجاً من عدم الإيمان، بل من غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحس المادي، وانهزام العقل والقلب وغلبة كل أولئك عليهم".

والإنسان إذا تدارك غفلته، فتاب عقله عن عنجهيته وتمرد على خالفه، وسجد بين يديه سبحانه معترفاً بالتقصير والضعف والتناهي، تداركته يد العناية، فيتحول العقل الجامد إلى عقل حي، وينقلب العقل المحبوس إلى عقل منطلق، ويرتفع الإنسان من وهدة البهيمية الراتعة بلا مسؤولية ولا رقابة أخلاقية إلى مراقي التشريف والتكريم، يقول الإمام النورسي رضي الله عنه: "وانظر إلى الإنسان كيف ترقى من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، ترقى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر. فانظر كيف صارت أسباب سقوطه -من عجز وفقر وعقل- أسباب صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني".

وحقيقة ارتقاء العقل لا تكون إلا بأخذه بالإيمان وبالقيم الأخلاقية، وإلا استحال أمر تحكيمة منفرداً إلى ضرب من التأليه الذي يؤدي بالحياة الإنسانية إلى أنتون الفوضى والاعتقال، يقول النورسي: "القلب الإنساني إذا انتزع منه الرأفة والرحمة والاحترام، فإن العقل والذكاء يسيطران -عندئذ- على زمام الإنسان، ويجعلان أولئك الناس كالوحوش الضارية والكلاب المسعورة".

وهكذا فإن الترتيب الفطري للإنسان يرفع القلب إلى مقام الإمارة، ويجعل العقل وزيراً له والحواس خدماً، فإذا فسدت الفطرة تأمر العقل، وتمرد على القلب ومعانيه، وهذا فساد العقل الفلسفي العبي، فإن فسدت الفطرة الفساد التالي للفساد الأول، الملازم له، الناتج عنه، تأمر الهوى بشهواته، وسخر العقل لأغراضه، وطرد معاني القلب من القيم الإيمانية العالية. وقد استمر النورسي طوال حياته، يدافع عن العقل الأخلاقي الذي يرجح القيم الإنسانية النبيلة على القيم الإنسانية المنحطة، ويذكر في كل مناسبة أن قيمة العقل من قيمة الأخلاق التي يدافع عنها، يقول: "فلئن كانت المداينة والتملق والتزلف وفداء المصلحة العامة في سبيل المصلحة الخاصة، تعدّ من مقتضى العقل... فاشهدوا أنني أقدم براءتي من هذا العقل، مفتخراً بالجنون الذي هو أشبه ما يكون بمرتبة من مراتب البراءة".

والإيجاد إلى الوسائط، ويسندون إليها التأثير، ويريدون بلوغ حقيقة الحقائق، ومعرفة الله ﷻ عن طريق العقل والفكر وحده، كالحكماء المشائين.

كما اجتهد الإمام النورسي -رحمه الله- في الرد على حجج فلاسفة الحتمية السببية بمنطق يشي بمعرفة واسعة بمذاهبهم، وفي الوقت ذاته باطلاع واسع على أدبيات المتكلمين والفلاسفة المسلمين. كما يظهر للقارئ أن مناقشته للحتميين، شبيهة بمناقشة الإمام الغزالي في تهافت الفلاسفة في إبطال قولهم في استحالة خرق العادات، وهو مبحث خصصه

لنفي رجوع الاقتران لمنطق السببية، بل لما سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التساوق لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفرق. يقول الإمام النورسي: "أي هذر هذا، وأي وهم! أليس الذي يتفوه به بعيداً كل البعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع، إلى الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا، وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها -على هذه الصورة البديعة- هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضاً ويظهرها معاً".

ويوضح النورسي أن الأسباب إنما وُضعت "لتبقى عزة القدرة مصونة من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ إن لكل شيء جهتين -كوجهي المرأة- إحداهما جهة "المُلك" الشبيهة بالوجه المطلي الملون للمرأة، الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى جهة "الملكوت" الشبيهة بالوجه الصقيل للمرأة. ففي الوجه الظاهر -أي جهة المُلك- هناك حالات منافية ظاهراً لعزة القدرة الصمدانية وكمالها، فوُضعت الأسباب كي تكون مرجعاً لتلك الحالات ووسائل لها. أما جهة الملكوت والحقيقة، فكل شيء فيها شفاف وجميل وملائم لمباشرة يد القدرة لها بذاتها وليس منافياً لعزتها. لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر".

الإنسان إذا تدارك غفلته، فتأب عقله عن عنجهيته وقمرده على خالقه، وسجد بين يديه سبحانه معترفاً بالتقصير والضعف والتناهي، تداركته يد العناية، فيتحول العقل الجامد إلى عقل حي، وينقلب العقل المحبوس إلى عقل منطلق، ويرتفع الإنسان من وهدة البهيمية الرائعة إلى مراقي الشريف والتكريم.

وحينما يقارن النورسي بين منطق القرآن ومنطق المتكلمين، يفسح عن صورة تقدم الوحي وترفعه فلا توازيه في منزلته الإقناعية منزلة المتكلمين مهما تفننوا وبرعوا، فيقول: "فمن هذا السر يتبين أن علماء الكلام، وإن تتلمذوا على القرآن الكريم وألفوا ألوف الكتب -بعضها عشرات المجلدات- إلا أنهم لترجيحهم العقل على النقل كالمعتزلة، عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيدته عشر آيات من القرآن الكريم وتثبته إثباتاً قاطعاً بما يورث القناعة والاطمئنان، ذلك لأنهم يحفرون عيوناً في سفوح

جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب، أي بسلسلة الأسباب، ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود والمعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث على الحياة! أما الآيات الكريمة، فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجر الماء أينما ضربت، وتفتح من كل شيء نافذة تدل على الصانع".

إن النورسي من خلال هذا الكلام التمثيلي الرائع، يوضح كيف يمضي تفسير القرآن للسببية من غير أن تصير حاجزاً عن إدراك العقل للوجود في كليته، للوجود المتمكن بقدرة الله التي تفعل فيه وبه ما تشاء. كما يبين في الوقت ذاته كيف أن السببية الجامدة تشل حركية العقل المادي وتأسره، فهي تحدد من طاقته الإبداعية، فلا يتصور شيئاً خارجاً عن قانون وضعه وسكن في قفصه إلى الأبد.

### العقل والجمع بين الآيات والقيم

العقل المؤيد بالوحي والإيمان عقل يصل بين الآيات والقيم. ومعلوم أن أحد أسباب التردّي والانقياد في الواقع الكوني اليوم، هو سيطرة فلسفات ومناهج معرفية تفصل بين الآيات والقيم. والحقيقة أنه لا نزاع في أن الكائن الإنساني يميل بفطرته التي خلقه الله تعالى عليها، إلى أن يجد في الأحداث التي تجري من حوله دلالات تتجاوز واقعها. وهو يرى في حصولها إشارات تتعدى الظواهر، وتحمل إليه هذه الدلالات الدقيقة والإشارات الخفية، معاني بعيدة أو قيماً علياً يشعر



بالحاجة إلى الاهتداء بها وإتيان أفعاله على وفقها.

والحال أنه ليس في الأطوار التي تقلبت فيها الحضارة الإنسانية كما يذهب الدكتور طه عبد الرحمن "طور خالف هذا الميل الفطري لدى الإنسان مخالفة الواقع الكوني له، فهو يقر بوجود القيم، لكنه لا يقر بوجود الآيات، ولا يخفى أن الفصل بين الآية والقيمة إجراء تجريدي صناعي، بل تصنعى، ذلك أن الآيات لا تعدو كونها الظواهر عينها وقد تلبست بها القيم، والظواهر إنما هي الآيات وقد انتزعت منها هذه القيم، فهذا الانتزاع يؤدي إلى تجريد القيم من المواد التي تتجسد فيها أو من الموضوعات التي تحملها، ثم وضعها في عالم لا وجود له إلا في الأذهان، قد يزعم بعضهم أنه عالم المثال، أي عالم لا يأوي إلا الصور المجردة".

لقد كان الإمام النورسي حريصاً على تعليم تلامذته ومحبيه أن كل علم من العلوم التي يقرءونها يبحث عن الله دوماً، ويعرف بالخالق الكريم بلغته الخاصة.

من موجبات اشتغال العقل الإيماني المؤيد، أن لا تنفك معرفة موضوع أي علم عن معرفة الله تعالى فيه، فكل معرفة عقلية كاملة، تشكل مفتاحاً من مفاتيح الاهتداء إلى طريق الله بقدر ما هي علمك بالموضوع الذي تختص ببحثه وبالكشف عن قوانينه. فالموضوعات أو الموجودات التي تنظر فيها العلوم، هي -على التحقيق- مجلى قدرة الله ومظهر صنعه، وكل من سرح فيها فكره وكان ذا عقل كامل، وجب أن يدركه فيها وأن يزداد اقترباً منه.

في استعارة رائعة يقول النورسي: "إن القرآن الحكيم بمثابة عقل الأرض وفكرها الثاقب، فلو خرج القرآن -والعياذ بالله- من هذه الأرض لجئت الأرض". وإن جنون الأرض، هو جملة الأمراض والأزمات التي تنبأ بها النورسي عندما تنفصل الآيات عن القيم، فتتحكم في دنيا الناس القيم المادية التي تطحنهم في رحاها، فلا يعيش إلا القوي، ولا يتأمر إلا المحتال الذكي، ولا يكون مثلاً أعلى إلا الفارغ الغوي.

إن الغاية من أعمال العقل عند الإمام النورسي، هي تحقيق التفكير والاعتبار، ومقتضى الاعتبار -كما يقول طه عبد الرحمن- هو العبور من أحكام النظر إلى أسرار العبر، فيكون الإنسان المُعتبر حقيقة هو من يرى الظواهر على أنها آيات، وينسب السيادة على الكون والوجود إلى صاحب هذه الآيات. هذا وإن العلم بمعناه المادي، قد فشل -بالتأكيد- في

أن يوفر للإنسان الراحة النفسية والسلوى والرضا، لأنه في الوقت الذي وفر فيه عالماً للكفاءة والفعالية والقياس والتنبؤ، قدم أيضاً عالماً فاقدًا للمعنى الخفي، ولا يهتم بالإشباع الروحي كما يؤكد "ماكس فيسر". إنه عالم بارد غير مضياف، الحقيقة فيه ليست الجمال أو الفضيلة أو ما هو نافع ويخدم غايات نبيلة، إن القيمة والعاطفة والأمل والمخاوف ليست من اهتماماته.

وإذا لم تكن هذه القيم الإنسانية من انشغالات العقل المادي واهتماماته، فإن النورسي يلح بالجواب على أن الإيمان هو الذي يقيم بين القلب والعقل، وهو الحارس المعنوي الأمين الذي يراقب ميولات النفس وتطلعاتها الفاسدة حتى يبقى الإنسان عبداً لله الواحد الأحد، متخلقاً بالأخلاق المحمدية، في زمن بات الخطر الكبير الذي يهدد حاضر ومستقبل الغرب، هو الصعود المأساوي لنوع جديد من الأزمات؛ أزمة الإنسان. ■

(\*) أكاديمي ومفكر مغربي.

#### المراجع

- (١) كليات رسائل النور (المكتوبات، اللغات، الكلمات، إشارات الإعجاز، الشعاعات، سيرة ذاتية، الخطبة الشامية)، لبدیع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحی، دار النیل للطباعة والنشر، القاهرة.
- (٢) إمامة الأمة، لياسين عبد السلام، ط ١، ٢٠٠٩، دار لبنان للطباعة.
- (٣) المواقف والمخاطبات، لـ"النفري عبد الجبار"، تحقيق آرثر أبري، تقديم وتعليق عبد القادر محمود، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، القاهرة.
- (٤) الجمع بين القراءتين، قراءة الوحي وقراءة الكون، لـ"العلاوي طه جابر"، ط ١، ٢٠٠٦، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
- (٥) تهافت الفلاسفة، للغزالي أبو حامد، تعليق محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية ٢٠٠٣، مصر.
- (٦) العمل الديني وتجديد العقل، للدكتور طه عبد الرحمن، ط ٢، ١٩٩٧، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.
- (٧) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، للدكتور طه عبد الرحمن، ط ١، ٢٠٠٥، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.
- (٨) روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، للدكتور طه عبد الرحمن، ط ١، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.
- (٩) سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، للدكتور طه عبد الرحمن، ط ١، ٢٠٠٠، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت.
- (١٠) John F. Haight, Science and Religion, Paulist press, New York, 1995, p15.
- (١١) Philippe Saint Marc. L'Economie Barbare, Frison Roche, 1994, p15.

# الهدد الطائر الذكي

ع  
عزيزي الإنسان... لا شك أن طيورًا كثيرة من بنات جنسي حدثتك عن قدرة الله تعالى في خلقه، ومن ثم عن عجائب صنعه وبدائع حكمته التي تجلت في أجسامها. كان ينبغي أن أكون أول المتحدثين في هذا الشأن، لكوني واحدًا من الطيور التي ذكرها الله تعالى في قرآنه. نعم، تم ذكري في القرآن الكريم مع النبي سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ \* لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ \* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ \* أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ



يازير" (١٨٧٧-١٩٤٢م)، يذكر بعد شرح طويل أن "المنطق" من "النطق" وهو لغة الطير، ولكن هذه اللغة لا تنحصر بالأصوات التي تخرج من الفم فحسب، بل هي لغة تعرب عنها الأصوات والتصرفات معاً... ثم يضيف منطلقاً من هذا المفهوم فيقول: "إن سليمان عليه السلام لم يتوقف في معرفته بلغة الطير عند حدود الأصوات والتصرفات فحسب، بل تجاوزها إلى المنطق الذي يشكل أساس تلك الحواس". وهذا الفهم في حقيقة الأمر، لا ينحصر بسيدنا سليمان عليه السلام وحده، فنحن أيضاً مهوون لفهمه واستيعابه، ولكن بشرط أن ندرسه بحق، ونبحث عنه بجديّة لامتناهية.

### منطق الطير

بمنطق الطير لدي، يمكن أن أتناول المعاني التي استخرجتها من العبارات والتحليل أعلاه من عدة زوايا:

أولاً، تم التركيز على أن "الطيران" أمر يحتاج إلى تعمق في العلم ودقة في الدراسة والبحث، وأن سيدنا سليمان عليه السلام وهب علم المبادئ الميكانيكي الذي يمكننا من الطيران، وعرف كذلك قدرة الرياح على الرفع في الهواء، والخصائص الفسيولوجية والتشريحية التي تلعب دوراً أساسياً في الطيران والتعلق في السماء.

ثانياً، أعتقد أن في: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، إشارة إلى أهمية الثروة البالغة في الدول؛ فوجود الطير مع الإنسان في جيش سليمان عليه السلام، لفت انتباهه إلى القوات الجوية أي الطائرات. وجميعكم يعرف مدى أهمية المراقبة من الجو والتحرك السريع في التجسس والاستطلاع.

أما القسم الذي يتعلق بي في السورة؛ فيمكن أن نفهم من



الكَادِبِينَ ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٠-٢٨).

يا لها من صورة مبهرة وبيان معجز! تُرى لماذا تحدث كتاب مقدس كالقرآن الكريم عن الطيور، واختارني أنا بالأخص في الحديث مع نبي عظيم كسليمان عليه السلام؟! ما دمنا نؤمن بأن الله حكمة في كل شيء، إذن يجب أن نفكر ونتدبر في هذه الآيات ونستخرج منها الجوانب التي تتعلق بيوما الحاضر أو مستقبلنا الآتي. إذا لاحظتم، استخدمت تعبير "أن نفكر"، وذلك لأن الأحكام القطعية، يُحتمل أن تكون عائقاً في الوصول إلى المعلومات الأكثر صحة ودقة، كما يمكن أن تكون هذه الأحكام سبباً في انخداعنا بعلما البسيط الضحل. لأنه إذا اتضح مع الأيام أن القرآن الكريم المعجز بكل كلماته، يشير إلى علوم ومكتشفات جديدة أكثر دقة وأشد التصاقاً بالواقع، أكون قد وضعت نفسي في موقع حرج بإطلاق أحكام قطعية، لذا يجب في هذا المقام أن أستخدم "منطق الطير" بدقة فائقة.

و"منطق الطير" مصطلح ورد في مطلع القصة التي ذكرتها الآيات السابقة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٦-١٧).

على الرغم من أن بعض التفاسير ذكرت بأن سليمان عليه السلام كان يعرف جميع لغات الطيور، فإنه من الملفت للانتباه أن القرآن الكريم استعمل مصطلح ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ دون "لغة الطير". فالمفسر الكبير العلامة التركي "ألمالي محمد حمدي





### حكمة الآيات

عندما افتقد سيدنا سليمان ﷺ جَدِّي الهدهد قال: ﴿لَا عَذْبَئِهِ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذُبْحَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ وأعتقد أن المقصود من ذلك، وجوب الاستئذان من القائد عند مفارقة الجماعة ولو كان ذلك في سبيل عمل نافع صالح لها، بالإضافة إلى أن التسبب والخروج عن الطاعة يستوجب العقوبة في سبيل بقاء الجماعة متماسكة. ويستفاد من هذه الحادثة أيضًا، أنه يمكن للفرد أن يتصرف بغير إذن قائده، اغتنامًا لفرصة لا يمكن معها الانتظار، وأن على القائد أن يتصرف بما تقتضيه العدالة وينصت إلى الأعداء التي يبدىها المخالف قبل إنزال العقوبة به. أما عقوبة "الذبح" -في اعتقادي- يمكن أن تنفذ عند الخيانة العظمى التي تستهدف الأمة كلها، أو تستهدف النيل من قوتها مع جيشها، كالتجسس وإفشاء الأسرار العسكرية للعدو، والفرار من الزحف، والنفير العام للجيش. وهذا التهديد في رواية أخرى، سببه أن جَدِّي كان قد تخلف عن نوبته في الحراسة.

وفي الآيات (٢٢-٢٦) نرى جَدِّي الهدهد في دفاعه عن نفسه، يبين لرئيس الدولة الموضوع الهام الذي شاهده ووقف عليه. وهنا أيضًا دروس وعبر ينبغي لنا الوقوف عندها، فنرى في البداية، تصرف سيدنا سليمان ﷺ العادل مع رعيته، فكل فرد يمكن أن يتحدث معه في راحة تامة، وبهذا العدل استطاع جَدِّي الهدهد أن يقول له: ﴿أَخَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾؛ فهو يريد أن يقول له "على الرغم من أنك رئيس دولة، فإن لقوتك وقدرتك حدودًا، فهناك بلدان لم يبلغها سلطانك، ولم تعلم عنها شيئًا بعد... لقد اكتشفت بلدة سبأ وأمكنت البحث في واقعها، وتوصلت إلى معلومات

قوله سبحانه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أن على رجل الدولة أن يقوم بتفتيش الجيش وكافة مؤسسات الدولة حتى أصغر فرد فيها. ويعتريني العجب حين أقرأ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، كيف عرف سليمان ﷺ أفراد جيشه العظيم بهذه الدقة، وكيف انتبه إلى غياب جَدِّي الهدهد بنظرة واحدة في هذا الجيش الجبار؟! ربما كان سيدنا سليمان ﷺ ينوي أن يكلف جَدِّي بمهمة، وعندما افتقده سأل عنه. وربما كان سليمان ﷺ قد أدرك أن الله سبحانه وهبنا القدرة على كشف مواطن الماء، فأراد أن يكلف جَدِّي بالكشف عن هذه المواطن. فكما نقل الطبري والبيضاوي من علمائكم؛ أن سليمان ﷺ كان قد نزل بجيشه في مكان قريب من صنعاء اليمن، فلم يجد ماءً، فبحث عن جَدِّي الهدهد ليستكشف له مواطن الماء.

ولعلكم الآن ستسألونني عن حقيقة قابليتي في الكشف عن مواطن الماء؟ أخشى إن أجبتكم، أن أفسد "سرَّ التكليف" في هذا الأمر. فعندكم المختبرات والمعاهد والجامعات، ويمكنكم البحث والدراسة في هذه القابلية حتى تصلوا إلى الجواب الشافي والوافي. ولكن يكفي أن أقول لكم، إنه من أجل البحث عن الماء في باطن الأرض، ينبغي عليكم -أولاً- أن تدرسوا هيكلية سطح الأرض، وتطلعوا على شكل انحدار طبقاتها من الجوّ. وإن سألتكم عن السبب في اختيار سيدنا سليمان ﷺ جَدِّي من بين جميع الطيور، أقول: لأنه يملك قدرة خاصة في الكشف عن الماء في باطن الأرض. وهو أمر عظيم يهتم به اليوم علماء "الجيولوجيا المائية" من بين علمائكم في الجيولوجيا ويعملون بجِدِّ في هذا المجال.







الحيوانات كسيدنا سليمان عليه السلام وتفهموا عنها الكثير. هذا وإن بديع الزمان سعيد النورسي يشير إلى الاستفادة من طير الزرزور في مكافحة الجراد. وكذلك يوجد في الطيور الأخرى طاقات فطرية، لعلكم تجدون سبل الاستفادة منها مع مرور الأيام. ومما يجدر ذكره هنا، أنه ورد ذكره في "التلمود" باسم "ديك البيان"، وورد ذكره في التوراة بين الطيور التي لا يؤكل لحمها. أعرف باسم جاويز الطيور بسبب عرفي الطويل الذي يعلو رأسي. وعلاوة على مجرى التنفس، أستطيع تنفس الهواء من مجرى الطعام من منقاري بسبب شكله الأنوبي الخاص، وبذلك أتمكن من إصدار أمواج صوتية مُرتعشة كأنها تصدر من المِزنان. أعيش في مصر والحبشة (أريتريا والصومال وإثيوبيا) وأنغولا والشرق الأوسط وتركيا وجنوب أوروبا الشرقية. أقوم بهجرات موسمية قصيرة. أحتضن (٥-٨) بيضات أضعها في نهايات الربيع في مدة (١٥-١٧) يومًا.

وعلى الرغم من أنني لا أبدو مختلفًا في مظهري الخارجي عن سائر الطيور إلا بشكل منقاري وعرفي فوق رأسي وألواني، فإنني أعتقد بأنه ينبغي عليكم البحث في قدراتي على السمع والبصر والشم والقدرات المودعة في دماغي، فضلاً عن الدراسات البيولوجية والبيئية، وذلك انطلاقاً من قصتي في القرآن الكريم. وهذه وظيفتكم باعتباركم عباداً منحكم الله نعمة التفكير والتدبر. لذا عليكم أن تفكروا في الحكمة من ذكر قصتي في القرآن الكريم، وأن تأملوا وتفكروا في خلق السماوات والأرض في كتاب الكون المنظور. ■

(١) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

أكيدة عنها أضعها بين أيديكم. لأن المعلومات التي تقدّم إلى الدولة ينبغي أن تعلق على الشبهات. كما أننا نرى أيضاً أن جدّي الهدهد عندما حاول شدّ اهتمام سيدنا سليمان عليه السلام بالحديث عن غنى بلقيس ملكة سبأ وراثتها، وعن عرشها وعظمتها، فإنه عليه السلام لم يُبدِ أيّ اهتمام بذلك، حتى إذا شرع في الحديث عن شركهم وعبادتهم للشمس، راح سليمان عليه السلام يستمع إليه بدقة ويدي اهتمامه بالأمر، لأن تبليغ المتمرغين بأحوال الشرك والكفر والانحراف، ودعوتهم إلى الهداية والإيمان بالله واتباع أمره، هي مهمة الأنبياء الأولى.

ولكن لم يصدّق سيدنا سليمان عليه السلام جدّي الهدهد مباشرة، بل عامله كالمتهم ووضعه تحت الاختبار؛ حيث لم يعتمد على الأخبار التي جاء بها، ووضع احتمال أن تكون كذبة من الهدهد لتبرير غيابه، ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ويبدو هنا جلياً التركيز على وجوب التريث في الحكم على مجتمع بأكمله بناءً على خبر واحد. ثم أراد سيدنا سليمان عليه السلام استكشاف الموقف، فاستعمل جدّي الهدهد كساعي برید: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، لكنه لم يكن كالحمام الزاجل الذي يستخدم لتبليغ الرسائل فقط؛ لأن سيدنا سليمان عليه السلام طلب من جدّي، الابتعاد قليلاً وانتظار ما سيحدث... فهي مهمة استطلاعية يريد من خلالها أن يعرف ردود أفعال مملكة سبأ للأوامر التي تحملها الرسالة، وعليها يتوقف تصرفه معهم وإستراتيجيته بما يقتضيه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإما أن يختار الاستعداد للحرب، وإما أن يبادئهم بالحسنى ويرسل لهم الهدايا لعلهم يتعظون. ولذلك كان يولي أهمية كبيرة لما سيقوم به جدّي من استشعار عن بُعد واستطلاع. أيها الإنسان المحترم، كنت أنوي -كباقي أصدقائي الحيوانات التي تحدثت قبلي- أن أتحدث عن حُسن الخِلقَة التي فطرني عليها ربي، وتجليات أسمائه الحسنی في بنياني، لكنني وجدت القرآن الكريم يتحدث عني في هذه القصة، فارتأيت الوقوف عندها وتقديم وجهات نظري حول معانيها. وبيان القرآن الكريم المعجز، لا بد من تفسيره في كل عصر بما يحمله ذلك العصر من علم وُقي. وقد تحدثتُ قدر فهمي وبمنطق الطير لدي. لعله يخرج منكم من هو أشد علماً مني، ويقدم لكم تفسيراً أقرب للفهم وأكثر إقناعاً. فأنا لا أدعي الحقيقة، بل أحاول الاقتراب منها، والموضوع مفتوح للمكتشفات الجديدة، وربما استطعتم أن تفهموا ألسنة



## الجندي الصغير

مسرعة باتجاه المعسكر، محملة بما أمكن جميعه من عتاد حربي، وزاد للجنود الذين يخوضون غمار المعارك الضاربة في الجبهة، وجد النقيب امرأة شابة تشير إليه أن يتوقف. اعتلت الدهشة وجهه المتجهّم الذي اشتعل بموجة من الأسئلة... "من تكون هذه المرأة؟ وماذا تريد؟ ولماذا وقوفها في منتصف الطريق في هذا الوقت وقد حل الظلام؟ ودارت في رأسه بعض الظنون ووجد أن الأمر لا يعدو كونه مكيدة حيكت ضده من قبل بعض العملاء الذين يساندون الأعداء، إلا أنه طارد هذه الظنون ووجد أنه لا بد من التوقف لمعرفة بغية هذه المرأة وماذا تريد. قال في نفسه: "لو لم يكن هناك

ي يقود الليل أجنحته السوداء ليحتضن العالم بعباءة سوداء، مبرقة بنقاط بيضاء لامعة بعد أن غربت الشمس الواهنة، التي كانت تسلط أشعتها الفاترة على إحدى القرى الملتهبة بنار الحرب.

في هذا الوقت توجه النقيب إلى معسكر حمزة الذي كان يخوض غمار المعركة مع قوات الوحدة في جبهة الضالع ضد الردة والانفصال. توجه إلى المعسكر بعد أن التقى بسكان تلك القرية، وحثهم على الدفاع عن الوحدة الوطنية، وطلب منهم العون والمساعدة، ليتسنى لهم صد كيد الأعداء المتآمرين على وحدة الشعب. وبينما كانت السيارة العسكرية

ي



أمر مهم، لما وقفت في مثل هذا الوقت في هذا المكان"، وهذا من سرعة سيارته العسكرية ليتوقف حيث كانت تقف، وكان شديد الحذر والحرص. تقدمت المرأة نحوه، فأشعل عود الكبريت ليتسنى له معرفة شخص هذه المرأة على ضوء خافت، وقبل أن يسألها عن بغيتها ومن تكون، تحدثت قائلة بعد أن أقرأته السلام:

- وجدتك في القرية تدعو الناس وتحثهم على الدفاع عن الوحدة، وتطلب منهم العون والمساندة، وأنا امرأة لا قدرة لي على القتال ولا أملك ما أبذله في سبيل الوطن والواجب، وها أنا ذا قد أتيتك بمجموعة من الكعك الناشف صنعته بكل ما تبقى من دقيق القمح، ولو كان بوسعي أن أحضر المزيد لما تأخرت، خذه لعله يسد رمق جائع لا يجد ما يأكله في خندق القتال.

دفعت إليه ما كان في حوزتها وذهبت وهي تبكي. احتار النقيب في أمر هذه المرأة، فهي فقيرة ولم يمنعها فقرها من المشاركة في مساندة جنود الوحدة. تحركت السيارة باتجاه المعسكر مسرعة. كان النقيب يفكر بأمر هذه المرأة، مقدراً لها هذا الحس الوطني النبيل تجاه الوطن... الشيء الذي رفع من معنوياته مدركاً أن شعباً عظيماً يقف وراء قيادته مضحياً بكل غالٍ ونفيس، وليست هذه المرأة إلا نموذجاً للمرأة المسلمة التي وقفت بشجاعة وفداء، توازر الجنود وتقدم لهم العون والمساندة. وعند وصوله إلى المعسكر، تلقى الأوامر أن يواصل السير حتى جبهات القتال ليأخذ للجنود ما كان يحمل من تبرعات تلك القرية. وعند وصوله خطوط المواجهة، أوقف سيارته وحمل بعض الكعك وتوجه إلى الجنود المرابطين في جبهات القتال، وأخذ يدفع لهذا بعضاً من الكعك وذلك بشيء مماثل... فإذا به يجد طفلاً صغيراً يحمل بندقية قديمة، إذا أطلق بها عياراً نارياً تركها لتبرد، وحتى إذا ما بردت أطلق عياراً آخر وتركها لتبرد مرة أخرى... فأشفق عليه وخشي أن تصيبه نيران الأعداء، فأمره أن يعود إلى الخطوط الخلفية... فطلب منه الصغير أن يتركه يقاتل ويقتحم التحصينات التي كان يتمترس فيها الأعداء... نظر النقيب مذهولاً بشجاعة هذا الطفل، الذي كاد يلتهم الأعداء بعينيه الصغيرتين يريد أن يحطمهم ويقتحم تحصيناتهم. ونظرة أخرى برزت تتأمل في ابتسامة عريضة تلك البندقية

التي كانت تواجه عتاداً عسكرياً حديثاً... وبينما هما يتحدثان في صمت، كلٌّ يشعر بما يدور في ذهن الآخر، بدأت الطائرة "ميج ٢١" المساندة لقوات الأعداء، بقصف الجنود بالقنابل لتسقط قنبلة بالقرب من مكان النقيب والجندي الصغير، ليصاب الأخير بشظية في رأسه تلقيه على الأرض. النقيب أيضاً أصابته شظية في رجله اليسرى، لم يشعر بها لأنه كان مهتماً بما آل إليه مصير الصغير. وقبل أن يموت هذا الصغير أدركه النقيب ليسمع ما كان يهمس به:

- إن كُتبت لك الحياة وعدت إلى القرية التي أسكن بها، فستجد أختاً لي هناك تنتظر عودتي منتصراً لتشييع حثماني... وقبل أن يموت الصغير دفع إليه بندقيته وخاتماً فضياً كان في يده، وأوصاه بإيصالهما إلى منزلهم، لعل مناضلاً هناك ينتظر دوره في الموت والاستشهاد في سبيل الله والوطن. كانت هذه العبارة الأخيرة التي تلفظ بها البطل الصغير قبل أن يستشهد ويفارق الحياة. ذرفت عينا النقيب الدموع لفقدان هذا الصغير الذي يجسد معنى الكفاح والشجاعة والحب والولاء لله والوطن...

وبعد أن خرج النقيب من المستشفى، توجه إلى القرية حيث تسكن أخت الشهيد الصغير، حاملاً البندقية والخاتم. وبينما كان يسير على قدميه وقد بدا شديد التعب بسبب الإصابات، وقعت عيناه على امرأة عجوز تهش على أغنامها، فسألها ما إذا كانت تعرف البيت الذي تسكنه تلك المرأة الشابة، التي استشهد أخوها في المعركة منذ أمد غير بعيد... نظرت العجوز إليه طويلاً، متأملة البندقية وقالت وهي تبتسم:

- هل استشهد الصغير؟

- نعم

- متأكد؟

- نعم... وكنت إلى جواره، وأنا الذي أحمل وصيته.

- الحمد لله.

واقتربت منه ومدت يدها لتأخذ البندقية، فيما كان النقيب غارقاً في دهشته وذهوله شارد الحس، يفكر بأمر تلك العجوز التي تبتسم وهي تسأل عن موت الصغير قائلة:

- هل أوصاك بإحضار شيء آخر غير البندقية؟

نظر إليها النقيب وقد زادت دهشته وذهوله، فتلعثم في إجابته:

- شيء آخر! مثل ماذا؟

- خاتم فضي مثلاً.

- نعم أوصاني بأن أحضره والبندقية.

- أين هو إذن؟

نظر إلى البندقية ومد يده ليأخذها وهو يقول:

- بأي صفة تريدني مني أن أسلمك الخاتم؟

فردت عليه العجوز هادئة غير مبالية:

- إنه حفيدي.

نظر النقيب إليها، وتأمل وجهها المتجدد وهو غير مصدق

أن ذلك الصغير حفيدها، قال:

- لا يبدو أنه حفيدك، لو كان حفيدك لما وقفت هكذا

مبتسمة.

قالت العجوز:

- وماذا تريدني أن أعمل؟! لقد مات وسوف نموت

كلنا... مات شهيداً وسيدخل الجنة، وعليّ أن أفرح لأن

حفيدي دخل الجنة وفاز بها رغم صغر سنه.

كاد النقيب أن يقع على الأرض وهو يسمع منطق هذه

العجوز التي تفرح لموت حفيدها، إذ لم تحزن ولم تذرف

دمعة واحدة، ولم تسأل حتى عن الجنة، بل إنها مشغولة

بالخاتم الفضي، إنها ليست كما ادعت. كل ذلك كان يجوب

في ذهن النقيب الذي أخذ البندقية وترك العجوز متوجهة نحو

القرية، دعت العجوز أن يتوقف فتجاهل دعوتها، فقالت له:

- عند وصولك إلى القرية ستجد بيتاً أبيض بجانب شجرة

عنب مثمرة، تلك الشجرة لنا، وذلك المنزل منزلنا، اطرق

الباب فستفتح لك امرأة شابة هي حفيدي وأخت الشهيد،

وأثناء طريقك إلى البيت ستجد دكاناً صغيراً عند مدخل هذه

القرية يجلس فيه رجل عجوز يقوم بخياطة الملابس، أرجوك

أن تعرج إليه وتقول له، إن الصغير قد مات ولا داعي لأن

يخيط ملابسه لهذا العيد، فنحن فقراء ولا نريد أن ندفع ثمن

ملابس لا نجد من يرتديها بعد موت الصغير.

اشتعل النقيب غضباً وقال في نفسه: "يا لك من امرأة

حمقاء! حفيدك فارق الحياة وأنت غير مبالية، وكل ما تفكرين

فيه هو الملابس وثمان الملابس ومن سيرتديها.

وسار في طريقه غير عابئ بما كانت تقوله العجوز... وعند

وصوله القرية، نظر إلى دكان الخياط فلم يعرج إليه، وسار

متجهاً إلى البيت الأبيض المتميز بتلك الشجرة المثمرة. وقبل

أن يطرق الباب فكر لحظة بأمر الأخت... كيف سينقل إليها

خبر موت أخيها... طرق الباب وهو ما يزال يفكر. فُتح الباب

وخرجت منه امرأة شابة... إنها تلك المرأة التي أوقفت سيارته

في منتصف الطريق، ودفعت إليه تلك المجموعة من الكعك.

ارتعد النقيب خوفاً ودهشة وذهولاً وتقديراً واحتراماً لشخص

هذه المرأة الفقيرة، التي دفعت إليه ما كان في حوزتها وذهبت

وهي تبكي. كاد النقيب أن يفقد وعيه وهو يقف أمام امرأة

بهذا الحس الوطني، فقبل أن تدفع الكعك دفعت أحاها وهو

ما يزال صغيراً، للدفاع عن الوحدة والوطن.

نظرت المرأة نحوه وأدركت سبب قدومه، أدركت أن

أحاها قد استشهد... فارتفع صوتها مزغرداً... وقف النقيب

يتأمل فرحة هذه المرأة حائراً، يكاد لا يصدق ما تسمعه أذناه

وما تشاهده عيناه، إن أمر هذه الأسرة غريب؛ ابتسمت العجوز

وهي تسأل عن مصير الصغير وما إذا كان قد مات أو أنه

على قيد الحياة، وهذه المرأة الشابة عبرت عن فرحتها بموت

أخيها وهي تطلق الزغاريد لتجلجل في السماء. تذكر النقيب

الكلمات الأخيرة التي همس بها الصغير وهو يودع الحياة:

"إن كُتبت لك الحياة وعدت إلى القرية التي أسكن فيها،

ستجد أختاً لي هناك تنتظر عودتي منتصرةً لتشييع جثثاني".

أدرك النقيب أنه يقف أمام أسرة نموذجية.

فمن منا سوف يعيش إلى الأبد؟ وإذا كنا سنموت فلماذا

لا نموت شهداء؟ فليس هناك أعظم من أن نموت ونحن

ندافع عن قضية وطنية وإنسانية... لأن الوحدة بالنسبة لأبناء

المسلمين هي التضحية الكبرى التي ناضل من أجلها البسطاء

طويلاً، واعتبروها قضية وطنية وإنسانية وفكرية...

أدرك النقيب أن ضميراً لا إرادياً يحرك النزعة الوطنية عند

البسطاء الذين يهبون الحياة رخيصة في سبيل قضاياهم ولا

ينتظرون ثمناً لما بذلوه.

مد النقيب يده إلى كتفيه وانتزع الرتبة العسكرية التي

منحت له ثمناً لدور عظيم قام به دفاعاً عن قضية عظيمة.

فالنقيب أراد أن يكون بسيطاً كهؤلاء الساكنين في هذا البيت

الأبيض. ■

(٥) كاتب وأديب يمني.



# الجزري

## اختراعاته العلمية وتطبيقاته الميكانيكية

هـ

هو بديع الزمان أبو العز أبو بكر إسماعيل بن الرزاز، الملقب بـ"الجزري" نسبة إلى موطنه "أرض الجزيرة" بين نهري دجلة والفرات بالعراق. لا يعرف الكثير من حياة الجزري، حيث تخلو كتب التراجم من ذكره، ومن المعتقد أنه ولد عام (٥٦١هـ-١١٦٥م) في أرض الجزيرة، وتوفي عام (٦٠٧هـ-١٢١٠م) وإن كانت بعض المصادر تشير إلى وفاته عام (٦٠٢هـ-١٢٠٦م).

ومن الثابت أنه خدم في بلاط ملوك "ديار بكر" التركمانيين الذين كانوا تابعين للدولة الأيوبية في عهد مؤسسها "صلاح الدين". وقد رفعته خبرته العلمية وقدراته الابتكارية في الاختراع والإنشاء إلى مرتبة "ريس الأعمال" أي كبير مهندسي الدولة.

ولا تتوافر تفاصيل كثيرة عن مرحلة الدراسة في حياة بديع الزمان الجزري، لكن من المقطوع به أنه درس الرياضيات وما توافر في عصره من معلومات فزيائية ومعلومات خاصة بالتطبيقات الصناعية، وأنه كان دائماً يقرن الدراسة النظرية بالتجريب، ولا يثق بالنظريات الهندسية ما لم تؤكدتها التجارب العملية. وكذلك تقع إنجازاته في دائرة الاختراعات الميكانيكية وصناعة الآلات، وكان هذا المهندس البارع معنياً -بصفة خاصة- باستخدام الحقائق العلمية والخبرة التكنولوجية في صناعة ما ينفع المجتمع من آلات مبتكرة.

### إنجازاته العلمية وكتابه القيم

وتتضح إنجازات الجزري العلمية من كتابه الهام "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، وهو كتاب في الهندسة الميكانيكية، يعد -بحق- أروع ما كتب في القرون القديمة والوسطى عن الآلات الميكانيكية والهيدروليكية.

وقد اشتهر هذا الكتاب كثيراً في العالم الغربي، وترجمت فصول كثيرة منه في الربع الأول من القرن العشرين إلى اللغة الألمانية، وقام بالترجمة كل من "فيدمان" (Wiedmann) و"هاوسر" (Hawser)





الذين قاما بأبحاث هامة جداً في تاريخ العلم والتكنولوجيا عند العرب. كما صدرت ترجمة كاملة باللغة الإنجليزية، قام بها "دونالد هيل" (Donald Hall) المتخصص في "تاريخ التكنولوجيا العربية".

ومن دراسة فصول الكتاب ندرك في الحال، أن الجزري كان راسخ القدم في فنه، وأنه كان ملماً بكل الفنون الميكانيكية والهيدروليكية إلماً قوياً. ونفهم من مقدمة الكتاب أنه قد ألفه بطلب من ملك "ديار بكر" الملك "الصالح ناصر الدين أبي الفتح محمود بن قر أرسلان بن داود بن سكان بن راتق" الذي تولى الحكم ما بين عامي (٥٩٧-٦١٩هـ). يذكر الجزري أنه كان قبل ذلك في خدمة والد هذا الملك وفي خدمة أخيه، وأن خدمته تلك بدأت في عام (٥٧٠هـ-١١٧٤م)، وأنه قد قضى خمسة وعشرين عاماً في خدمتهم.

ومن المؤسف أن النص العربي الكامل لهذا الكتاب، لم ينشر إلا بعد نقله إلى الألمانية والإنجليزية، وقام معهد التراث العلمي العربي بإصدار نصه العربي الكامل، حيث قام بتحقيقه الدكتور المهندس أحمد يوسف الحسن بالتعاون مع الدكتور عماد غانم ومالك ملوحي، اعتماداً على صورة كافة مخطوطات الجزري المعروفة والموجودة في المكتبات العالمية المختلفة، وأفضلها مخطوطات إسطنبول (مخطوطة طوب قابي سريبي، رقم ٣٤٧٢).

ويعتبر كثير من الباحثين وعلماء التكنولوجيا التطبيقية، أن هذا الكتاب أهم مؤلف هندسي وصل إلينا من جميع الحضارات القديمة والوسيلة التي عرفها العالم حتى عصر النهضة الأوروبية. ولا ترجع هذه الأهمية فقط لاشتمال الكتاب على أوصاف مهمة للآلات الميكانيكية التي ابتكرها ووصفها الجزري، بل ترجع أيضاً إلى اشتماله على طرائق صنعها؛ فقد وصفت هذه الطرق بتفاصيل وافية وإرشادات دقيقة أمكن معها صنعها في عصرنا بأيدي الفنيين. وكل ذلك قد أكسب كتاب الجزري شهرة واسعة، وظفر له باهتمام كبير في الغرب. ومن الجدير بالذكر أن الباحث والمستشرق "دونالد هيل"، نال عن ترجمته لكتاب الجزري إلى الإنجليزية، وكتابة رسالة شاملة عن "بديع الزمان الجزري وتاريخ التكنولوجيا الإسلامية" جائزة "دكستر" الدولية التي تمنح لأصحاب الإنجازات المتميزة في مجالات التكنولوجيا. وهناك باحث ياباني اهتم بالجانب التشكيلي في كتاب الجزري وتوفر على دراسته،

ونشر دراسات عن الرسوم الهندسية والأشكال التوضيحية التي حفلت بها إحدى مخطوطات الكتاب، وهي المخطوطة المحفوظة بالمكتبة السليمانية بجامع "أياصوفيا" بإسطنبول. ولأهمية الكتاب الكبيرة في نظر الغرب، قال عنه المستشرق المهندس التكنولوجي الإنجليزي الدكتور "دونالد هيل": "لم تصلنا حتى العصور الحديثة وثيقة من أية حضارة أخرى في العالم، فيها ما يناظر ما في كتاب الجزري من ثراء في التصميمات والشروح الهندسية الخاصة بطرق صناعة وتجميع الآلات". ويقول مؤرخ العلم الكبير "جورج سارتون": "هذا الكتاب هو أكثر الكتب من نوعه وضوحاً، ويمكن اعتباره الذروة في هذا النوع من إنجازات المسلمين".

### أهمية كتاب "الجامع" ومحتوياته

يقع الكتاب في خمسة أجزاء يختص كل منها بقسم من أقسام الحيل أو تكنولوجيا الصناعات، ويجمع بين دفتيه الموضوعات التالية: الساعات المائية، السفن، أحواض القياس، النافورات، آلات رفع المياه التي تعمل بقوة جريان الماء، بعض الآلات المفيدة كالأبواب والأقفال... وقد ركز الجزري في كتابه، على أهمية التجريب وأهمية الملاحظة الدقيقة للظواهر التي تكون أساساً للاستنتاجات العملية. ويلخص الكتاب معظم المعارف المتراكمة عن الهندسة الميكانيكية حتى ذلك الوقت، مع تطورات وإبداعات للجزري نفسه، وتكمن أهميته جزئياً فيما تضمنه من وصف لآلات ومكونات وأفكار. وبالقدر نفسه من الأهمية، تبدو حقيقة أن الجزري صنف كتابه مع إصرار مُعلن على تمكين الصناع من بعده من إعادة تركيب آلاته، حيث قدم وصفاً مدققاً لكل من الخمسين آلة يتضمن صناعتها، وتركيبها، والأجزاء المكونة لها... وكما يقول المستشرق "دونالد هيل": "فقد زدنا بثروة هائلة من المعلومات المتعلقة بطرق ومناهج المهندسين الميكانيكيين في العالم الإسلامي".

ومما حفل به الكتاب: وصف الجزري خمس آلات لرفع المياه تعمل بقوة جريان الماء في مجراه الطبيعي. وقد جعلها الجزري ذات تصميمات مختلفة لتتناسب الارتفاعات المتباينة التي يلزم نقل الماء إليها... وقد تركت هذه الآلات بصمة واضحة على تاريخ صناعة الآلات في العالم. وكذلك وصف الجزري النموذج الأول للمضخة المائية التي مهدت السبيل لابتكار المحرك البخاري وآلات الضخ التي تعمل



بالمكابس أو الأسطوانات المتداخلة.

### ابتكاراته المتميزة

ووصف الجزري العديد من أنواع الساعات المائية والرملية، ومن بينها ساعات مائية تقوم فكرة عملها على تعبئة وتفريغ الماء من وعاء لآخر بمعدل ثابت. وبعض هذه الساعات مزود بآليات معقدة جداً تعتمد في عملها على حركة الماء في دورة مغلقة، وينتج عنها مؤثرات خلابة، مثل صدور أصوات موسيقية في أوقات معينة، أو بروز دمية لتؤدي حركات طريفة بغرض التنبيه إلى أوقات الساعة.

لقد اخترع الجزري عدداً من الساعات المعروفة في زمانه باسم "البنكومات" أو "الفنكامات"، ومن بين هذه الساعات؛ ساعة الطبالين وهي ساعة بها طبالون يدقون طبولهم بعد كل ساعة تمضي، ليعرف الناس كم مضى من الساعات، ومن بينها ساعة على شكل زورق توضع للزينة في قاعات الاستقبال، وتحدد للضيوف الأوقات، ومن بينها ساعة مستوية، بها فيل يرفع خرطومه مرة أو عدة مرات كلما مضت من الزمن ساعة أو عدة ساعات، ومن بينها ساعة مائية من تصميم الجزري وتنفيذه، وتعمل ميكانيكياً بحركة الماء.

كما ابتكر الجزري أيضاً، عدداً من النوافير أو الفوارات لحدائق القصور في زمانه بشمال العراق، كذلك ابتكر الجزري عدداً من آلات التحريك للأشياء، وابتكر أيضاً دواليب ترفع المياه من البحيرات والآبار والأنهار... ومن بين ابتكارات الجزري، آلة ترفع الماء إلى نحو عشرين ذراعاً بواسطة دولاب من الماء السريع الجريان. وابتكر زورقاً متحركاً يوضع في بركة في مجالس السمر الليلية. وابتكر آلة ترفع الماء من بئر أو نهر بواسطة دابة تديرها لتمد الأراضي الزراعية بالمياه. وابتكر فوارة ذات عوامتين، تتبادلان العمل صعوداً وهبوطاً دون توقف أو انقطاع، فيستمر الماء في التدفق إلى أعلى. وابتكر تمثال بقرة على قرص عمود مجوف موضوع في وسط بركة، وتدير هذه البقرة دولاباً يرفع الماء من البركة إلى ارتفاع يصل إلى أكثر من مترين. وقد أبدع الجزري في رسم أشكال هندسية رائعة الجمال كان الصناع ينفذونها ويزينون بها أبواب المساجد والقصور.

### الجزري والهندسة الميكانيكية

كان تأمين الماء من أجل الشرب والري وللأغراض المنزلية

والصناعية، أمراً حيوياً في البلاد العربية والإسلامية؛ لم تكن هناك أمطار غزيرة وأنهار وجدول كثيرة كما هو الحال في شمال أوروبا، والمناطق التي كانت تهطل فيها الأمطار بكميات وفيرة تكفي للزراعة دون الحاجة إلى الري. ومن هنا تحتاج عمليات الري في كثير من الأحيان، إلى وسائل لرفع الماء لتلبية الحاجات الأساسية كالشرب والطبخ، أو لتزويد الأراضي الزراعية بالمياه اللازمة للزراعة.

لقد حاول المهندسون العرب والمسلمون، تحسين وسائل رفع الماء. ونجد ذلك واضحاً لدى كل من الجزري، وتقّي الدين، إذ وصف كل منهما آلات لرفع الماء حاولا فيها تطوير الأنواع المعروفة. وقد خصص الجزري في كتابه "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، فصلاً خاصاً لآلات رفع الماء وصف فيه خمسة أنواع يحتوي كل منها على تحسينات وابتكارات.

فالآلة الأولى، فيها تحسين كبير لعمل الشادوف، وهي آلة تدور بقوة الحيوان كما هو الحال في الساقية، والجزء الذي يغرف الماء عبارة عن مغرفة لها ذنب طويل أجوف كالميزاب، والمغرفة مربوطة عند نهاية ذنبها بمحور أفقي بحيث إنها تتحرك معه، ويحمل المحور عند أحد طرفيه ترساً ويوجد بمحاذاة هذا الترس ترس جزئي يحمله محور مواز لمحور المغرفة. وفي الطرف الآخر لهذا المحور الثاني ترس رأسي يديره ترس أفقي، وهذا الترس الأخير يديره الحيوان المربوط بعمود الجر، يدور الحيوان في مسار دائري كما هو الحال في الساقية، ويدير زوج دواليب المسننة - بالتالي - المسنن الجزئي، وتتعشق أسنان هذا الأخير بالمسنن المقابل وتديره، وترتفع المغرفة إلى الأعلى وتفرغ محتوياتها من الماء إلى القناة، وعندما ينتهي تعشق الأسنان الجزئي، تسقط المغرفة ثانية إلى الماء لتمتلئ وتتكرر العملية باستمرار. ونجد أن الجزري يصف لأول مرة الدولاب المسنن جزئياً، وقد استخدم هذا النوع من المسننات في أوروبا بعد حوالي مائتي عام من تاريخ كتاب الجزري.

والآلة الثانية للجزري ماثلة للأولى، إلا أنها مزودة بأربع مغارف، ويحرك كل مغرفة مسنن جزئي، وكانت الأسنان الجزئية موزعة بالتساوي على محيط الدائرة بحيث تقوم المغارف بعملها في مسافات زمنية متساوية. ويقول الجزري إن هذا التوزيع يجعل عمل الآلة أكثر هدوءاً، ونحن هنا أمام





وفي الآلة الخامسة، خرج الجزري عن نطاق آلات رفع الماء التقليدية، إذ استخدم في هذه الحالة، مضخة ماصة كابسة ذات أسطوانتين متقابلتين، تكون الواحدة في شوط المص عندما تكون الثانية في شوط التصريف. واستخدم هنا آلية المرفق والكتلة المنزلقة، من أجل تحويل الحركة الدورانية إلى حركة ترددية، وأعطى أسلوبيين للقوة المحركة أحدهما باستخدام دولاب عنفي ذي أجنحة، والثاني باستخدام دولاب ذي مجاديف يدور كما تدور الناعورة.

أدخل الجزري في هذه الآلة عدة ابتكارات، فهنا نجد أقدم تطبيق لمبدأ المفعول المزدوج في الآلات المكبسية، وكذلك مبدأ تحويل الحركة الدورانية إلى ترددية، ونجد هنا أيضاً أول استخدام حقيقي لأنابيب الامتصاص في المضخات.

وفي مهرجان العالم الإسلامي الذي عقد ببريطانيا عام ١٩٧٦م، عرضت نماذج من وسائل الري التي استخدمت في بغداد في القرن الرابع للهجرة، كما عرض نموذج لمقياس النيل عند الروضة في وقت الفيضان استعمل على عهد الخليفة العباسي المتوكل، وعرض نموذج آخر لرفع الماء صنعت حسب إرشادات بديع الزمان الجزري في كتابه سالف الذكر. فقد اخترع الجزري عدة آلات وأجهزة -كما رأينا- وقد عرضت له آلة لقياس كمية الدم التي تؤخذ من المريض. أما اختراعه الذي أثار إعجاب المشاهدين ودهشتهم، فهو الساعة الدقيقة، وهي ساعة مائية تحدد الوقت وتقدم إشارات -تقوم بأدائها دُمى- لدوران دائرة البروج، وتعاقب الشمس والقمر في فلكهما السرمدي الدائم الذي لا انقضاء له ولا انتهاء. ■

نفس مبدأ عمود الكامات في المحركات والضغوطات الحديثة. الآلة الثالثة للجزري كانت أكثر تطويراً للساقية، إذ إن الساقية تدور هنا بقوة الماء وليس الحيوان. وصف الجزري هنا آلة على مقياس صغير لإقناع المتفرجين، يرى المشاهد منشأة ظاهرة للعيان مركبة إلى جانب مصدر الماء، وتحت المنشأة بركة ينزل إليها الماء من المصدر بواسطة أنابيب، هناك سلسلة دلاء ترفع الماء من البركة، وتحت البركة يوجد حوض مخفي يحتوي على الآلات المحركة، ويمتد ضمن هذا الحوض المخفي عمود أفقي، مثبت على أحد طرفيه دولاب ذو كفات شبيه بالمغارف (دولاب عنفة)، وفي أرضية البركة ثقب يندفع منه الماء ويصطدم بالمغارف مسبباً تدوير الدولاب، وعلى الطرف الآخر للمحور يوجد مسنن رأسي يتعشق مع مسنن أفقي يمتد محوره الأعلى نحو المنشأة الظاهرة، وفي أعلى هذا المحور الأخير يوجد زوج من المسننات، ويركب الدولاب الحامل لسلسلة الدلاء على المحور الأفقي للمسنن الرأسي، وتصب الدلاء ماءها إلى قناة تنقل الماء إلى مصدره، وتبقى سلسلة الدلاء دائمة الحركة ما دام الماء يتدفق من أرض البركة مرتبطاً بالمغارف. ومن أجل إمتاع الناظرين، ربط بالمحور الرأسي نموذج لبقرة من الخشب تدور مع المحور فوق مبيضة ثابتة مستديرة دون أن تلمس أرجلها المنصبة، ويبدو للناظر الذي لا يعلم مصدر الحركة وكأن البقرة هي التي تدير الساقية.

الآلة الرابعة للجزري شبيهة بالآلة الأولى، إلا أنه استخدم فيها لأول مرة في تاريخ الهندسة الميكانيكية آلية المرفق والكتلة المنزلقة (Scotch yoke Mechanism) التي تحول الحركة الدورانية إلى حركة ترددية خطية.

(٥) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.





## فقه واقع الأمة - ٢

### دراسة في الشروط والعوائق

هـ- المشاركة الفعلية فيما يجري كلما أمكن ذلك.  
ذلك ومثله، من أجل إعداد المادة اللازمة للشروع في  
الدراسة اللازمة لتحصيل الفقه، وذلك بـ:

أ- التحليل الدقيق العميق المتنوع للمعطيات.  
ب- والتعليل الراجح للظواهر في مختلف الصور  
والاحتمالات.

ج- ثم التركيب المحكم للكليات من الجزئيات.  
د- ثم البناء العام للمراد حسب الحاجات.  
لا جرم أن هذا الشهود يحتاج إلى جهود وجهود. ولكن  
هل يتصور فقه لواقع الأمة وهي على ما هي عليه دون بذل  
لمثل تلك الجهود؟

٢- شرط الميزان: الميزان في لسان العرب آلة الوزن.  
ويستعار للعدل، وهو في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

ما هي الشروط اللازمة لمشروع فقه واقع  
الأمة؟ وما هي العوائق التي تقف في الطريق؟

#### دراسة في الشروط

١- شرط الشهود: الشهود في لسان العرب ضد الغياب، ولا  
يمكن لغائب عن الواقع أن يشهد به أن يفقه. ومن ثم لا بد  
لتحقيق الشهود والحضور من أمور:

أ- الرصد لما يجري بمختلف الحواس، شرط سلامتها  
عبر مرصد كافية مجهزة معدة لذلك.

ب- التوثيق الأمين الدقيق المنظم لكل ما حقه التوثيق.

ج- الكشف الأمين الدقيق الشامل لكل ما حقه  
الكشف.

د- إعداد قواعد لمختلف المعطيات، وبنوك لما يلزم له  
ذلك من المعلومات.

بِالنِّبَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ (الحديد: ٢٥)، مُنْزَلٌ كَالكِتَابِ مع الكتاب لضبط الأمور ووزنها بالقسطاس المستقيم؛ إذ لا بد لقياس كل شيء من ميزان، ولا بد لقياس أي حق أنه حق، من ميزان للحق هو الميزان، وذلك الذي أنزل مع القرآن، وجَلَّته السنة البيان، ولم يقبض رسول الله ﷺ إلا وقد اتضح الميزان وثبت، ولم يبق للبشرية إلا أن تدع جهلها وأهواءها لتدعن للميزان، وتزن بالميزان. لا بد من ذلك الميزان ليقوم فقه واقع الأمة بالقسط؛ لا بد من ذلك الميزان لإحكام الأداة وإلا اختل الفهم، ولا بد منه للتمكن من الوضع وإلا اضطرب الأمر، ولا بد منه لرصد ما يجري ويتفاعل في الظرف المعيش والمجال المحيط وإلا كان إخلال في الميزان أو طغيان، وكلاهما مانع من فقه واقع الأمة في ميزان الميزان، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٢٦﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٢٧﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩).

وذلك يعني أن الطاقم البشري -على سعته- ولا سيما النخبة المرجع، والدماغ المفكر المنظر، والجهاز المحلل المعلل المركب، أي مختلف الأطر المشغلة في مشروع فقه واقع الأمة، لا بد أن يكونوا ممن استقام لديهم أمر الميزان، وإلا ضاعت الأموال والأوقات والطاقات ولم تُفقه أمة ولا واقع ولا فقه، وتلك خسارة ما أفدحها من خسارة.

**٣- شرط الفرقان:** الفَرْقُ في لسان العرب مداره على الفصل والتمييز، "وفرقْتُ بين الشيئين: فصلت بينهما... سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة. والفرقان أبلى من الفرق، لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل... وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩)، أي نورًا وتوفيقًا على قلوبكم يُفَرِّقُ به بين الحق والباطل. فكان الفرقان هنا كالسكينة والروح في غيره". ذلك فرقان من الفرقان الذي أوتيهِ المحقق "الراغب".

ومن الفرقان الذي أوتيهِ صاحب المنار قوله عن الآية: "وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها هنا مطلقة، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق، ومعناها في أصل اللغة الفصل بين الشيئين أو الأشياء. والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل

والنفريق بين الأشياء والأمور في العلم، هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الأجناس، والأنواع، والأصناف، والأشخاص، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات، والبسائط والمركبات، والنسب بين أجزاء المركبات، من الحسيات والمعنويات، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازًا من غيره... وكما يكون الفرقان في مسائل العلوم وموادها، وفي الموجودات التي استنبطت العلوم منها، يكون في الأحكام والشرائع والأديان وفي الحكم بين الناس في المظالم والحقوق وفي الحروب... فقله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: إن تقوا الله في كل ما يجب أن يتقى، بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتزِيلُونَ بين الحجة والشبهة... وهذا النور في العلم الذي لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى هو الحكمة التي قال الله فيها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

هذه "الملكة" من العلم والحكمة، التي هي "الثمرة" لشجرة التقوى، وهي النور في آية الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨)، وهي التي بها يكون الفصل والتمييز والتزيل، والفرقان... هذه الملكة هي الفرقان الشرط، والشرط الفرقان، من أوتيهِ فقد أوتي خيرا كثيرا، ومن حرمه فقد حرم حرمانا كبيرا. ولا ينتظر من المحرومين المنطفئين المظلمين المختلفين أن يأتوا في فقه واقع الأمة بشيء. وكيف يزيل الظلمة من لا نور له؟ أم كيف يبصر من لا بصيرة له؟

إن واقع الأمة ليل سادف، وإن فقهه يحتاج إلى نور كاشف: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠).

### دراسة في العوائق

**١- ضعف العلمية:** العلمية مصدر صناعي من العلم، ويقصد بها هنا؛ ما يجعل البحث في موضوع ما علميًا حقًا، أي مستوفيًا للشروط اللازمة "في البحث التي تتمثل في: صحة



المنطلقات، وصحة المقدمات، ومن ثم صحة النتائج".

ذلك بأن الدرس -أي درس- ينطلق من النص بمفهومه العام للنص، أي من المادة الخام التي يقوم عليها البحث، وهذه يُشترط فيها:

أ- الصحة، وإلا انهار البناء كله، وللمحدثين في هذا الباب ومن هذا حذوهم قصب السبق. وفي الإعلام اليوم وهو المصدر الأول للمعلومات، فساد كبير واختلال عظيم لا يسلم من شر سلطانه إلا الراسخون في العلم.

ب- الكفاية، وإلا تعذرت الأحكام كلها أو بعضها، وكان النقصان في النتائج بقدر النقصان في المعطيات.

ثم إن النص -أي نص- بالمفهوم العام للنص، لا يستخرج منه ما فيه إلا بعد الدرس، وفق منهج خاص هو الأنسب للنص. وتتنوع المناهج لتنوع النصوص والمناهج، ولكن علميتها جميعاً تقوم على:

• إخضاع المادة المحكوم عليها كلها للدرس، للسلامة من آفات التعميم.

• تحليل تلك المادة تحليلاً كافياً يسمح بالإدراك التفصيلي للجزئيات والعناصر المكونة لها بحسب الهدف من البحث. ومعلوم أن ذلك يتطلب أدوات وأدوات، حسب طبيعة المادة ونوع الهدف، بدونها يتعذر النفوذ إلى خلايا المادة لاستخلاص المراد.

وما لم يتم ذلك فستظل المادة المبحوثة، في الظرف نفسه، بحاجة إلى بحث.

• إلقاء الأسئلة المحتملة على كل الظواهر التي كشف عنها التحليل ومحاولة الإجابة عنها، ولا سيما السؤال: لماذا كان هذا هكذا؟ وذلك لتحصيل الفقه التعليقي بعد العلم التفصيلي، والتمهيد للتركيب الابتكاري بعد التحليل المختبري.

وهذه الخطوة في الدرس، هي مناط فقه النص، وبدونها يقال للباحث: اذهب بسلام، فليس معك حتى الآن كلام.

• تجميع ما نجح في الاختبار من نتائج جزئية، وما صح من إجابات وثبت من فروض أولية، ثم تركيبها تبعاً لإشكال البحث والهدف منه في قضايا كلية، ثم بناء النسق العام منها الذي هو حل الإشكال وفصل المقال، بناء منطقياً لا دعوى فيه بغير دليل، ولا حكم بدون حجة، ولا ذكر ولا حذف، ولا إيجاز ولا إطراب، إلا وله في حل الإشكال نصيب ومن

تحقيق الهدف موجب.

هذه المعالم الكبرى للعلمية في النص والدرس، غائبة أو كالجائبة في معظم ما خبرته من دراسات في مختلف المجالات.

ولا حل شامل قبل حل "معضلة النص"، ولا حل سليم قبل حل "معضلة قراءة النص"، ولا حل حاسم قبل حل "معضلة المنهج".

والخطر كل الخطر، أن يستمر البحث أو يقدم عليه من جديد في واقع الأمة لفقهه، في غيبة مثل هذه المعالم.

والخوف كل الخوف أن لا تحدث توبة علمية نصوح فيستمر تبذير الأموال والأوقات والطاقات، وما أحوج الأمة إلى أي قدر من الأموال والأوقات والطاقات!

٢- ضعف المنهجية: منذ ست عشرة سنة خلت، رُفِع ما يمكن تسميته بـ"نداء المنهج"، ولأن زمن الأمة شبه واقف وفي آذانها وقراً أو شبه وقراً، فإن النداء ما زال بحاجة إلى أن يرفع عالياً، وذلك هو:

"مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري، إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم، وبمقدار تفقهننا في المنهج ورشدنا فيه يكون مستوى انطلاقنا كمّاً وكيفاً. ولأمر ما ألزم الله ﷻ الإنسان ممثلاً في المسلم بهذا الدعاء، سبع عشرة مرة في اليوم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).

إن حرصنا على استقامة المنهج في كل شيء، ينبغي أن يكون فوق كل حرص، وإن المجهود الذي نبذله من أجل تقويم المنهج، ينبغي أن يكون أكبر من كل مجهود، إذ العلم -كما هو معلوم- ليس هو الفناطير المقنطرة من المعلومات يتم تكديسها وخزنها في أدمغة بني آدم، وإنما هو صفة تقوم بالشخص نتيجة منهج معين في التعلم والتعليم، تجعله قادراً على علم ما لم يعلم. والعالم ليس هو الذي يحمل في رأسه خزائن ومكتبات، ولكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه وما في الخزائن والمكتبات، من أجل إضافة بعض الإضافات.

حقاً إنه لا بد من الاستيعاب أولاً -وهو جزء من المنهج- ولكن المهم هو ما بعد ذلك من تحليل وتعليل وتركيب.

والناظر في أحوال الأمة عامة، والحال العلمية منها خاصة، يلحظ بيسر أن مسألة المنهج لما تعط حظها من

العناية والرعاية، وأن كثيراً من الأموال والأوقات والطاقات تضع بفساد المنهج. وإذا جاز الترخص في شيء، فإن البحث العلمي لا ينبغي أن يكون من ذلك بحال، لأنه بمثابة القلب من جسد الأمة، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله. والأمة دائماً بخير ما دام فيها بعث علمي حقاً، ينير ويشق لها الطريق، ويحقق ويؤكد لها ذاتها التاريخية، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وبغير المنهج القويم لا يمكن أن يستقيم للبحث العلمي سير.

إن الحال العلمية عندنا، تشكو من عديد من الأمراض، منها التكديس بدل البناء، والاستهلاك بدل التصدير، والجمع بدل البحث، والارتجال بدل التخطيط، والفردية بدل الجماعية، والتسرع بدل التأني، والتعميم بدل التدقيق، والفوضى في عدد من المجالات بدل الضبط... ومرد ذلك كله -عند التأمل- إلى فساد المنهج.

فهل ستولى هذه المسألة حظها من الاهتمام؛ فنفكر -قبل السير- في الهدف من السير، ومراحل السير، وكيفية السير؟ أم سنظل سائرين وكفى؟ وحسبنا أننا نسير".

أجل، مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم إقلاعنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتمام في المنهج إلى التي هي أقوم.

ومن ذلك الاهتمام، أن لا نقدم ما حقه التأخير، ولا نؤخر ما حقه التقديم.

ومن ذلك الاهتمام، أن لا نقدم فقه الواقع على فقه الدين، لتوقف الفقه الأول على الفقه الثاني.

ومن ذلك الاهتمام، أن لا نشتغل بدرس النص قبل الإعداد العلمي للنص.

ومن ذلك الاهتمام، أن لا نقدم الدراسة التاريخية على الدراسة الوصفية.

ومن ذلك الاهتمام، أن لا نشتغل بالأحكام عن الحكم، وبالقواعد عن المقاصد، وبالسطوح عن الأعماق، وبالنوافل عن الفرائض... إلى غير ذلك مما يدرأ كثيراً من المفسدات لسلم الأولويات، ويصحح كثيراً من الموازنات بين الثوابt والمتغيرات.

ولا سبيل إلى فقه واقع الأمة اليوم أو غداً، إلا بعد الاهتمام في المنهج للتي هي أقوم.

وإذا كانت العلمية تحل إشكال صحة النتائج لصحة

المقدمات، فإن المنهجية تحل إشكال ضبط المراحل لضبط الأولويات، ومن أصول المنهج الصبر وانتظار الفرج، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

٣- غياب التكاملية: التكاملية مصدر صناعي كالعلمية والمنهجية. والمقصود بها أن يكون وضع الباحثين وهم يبحثون، والمشتغلين وهم يشتغلون، مؤسساً على أن جهودهم -أفقياً وعمودياً- يكمل بعضها بعضاً، أفراداً كانوا أم مجموعات، ومراكز كانوا أم منظمات، ومجامع كانوا أم جامعات... وهذه التي بحضورها يحضر خير كثير، وبغيابها ينفث باب للتبذير كبير.

فإن لم يكن التأسيس السابق فليكن التنسيق اللاحق، وإن لم يكن التنسيق في كل فليكن التنسيق في بعض، وإن لم يكن التنسيق الدائم فليكن التنسيق المؤقت... لكن أن لا يكون تنسيق قط، وتقع الحوافر على الحوافر، وتكرر ما فعلت الأوائل الأواخر، ويشغل بالموضوع الواحد عشرات، ولا يشتغل أي واحد بعشرات المواضيع أو مئات... فذلك منكر في الدين والعلم والمنهج كُبار، يجب على الواقع فيه التوبة منه، وعلى رائيته التغيير بحسب الاستطاعة له.

نعم، إن غياب "العلمية" أو ضعفها، عائق من أكبر العوائق، وغياب "المنهجية" أو ضعفها كذلك عائق من أكبر العوائق، ولكن غياب التكاملية أو ضعفها ليس فقط عائقاً من أكبر العوائق، بل هو رأس العوائق وأمّ العوائق.

ذلك بأن التنسيق يمثل ضرباً من "الشورى" في الطريق، فينتج عنه آلياً تصحيح الأعلام للعالم، وترشيد الأكثر منهجية للأقل، بحكم الرفقة العادية في الطريق، والتلاقي المتكرر في التنسيق. "والجهد إذا أحسن صرفه -وفق خطة علمية منهجية متكاملة- كفيل أن يثمر في نابتة الأمة اليوم ثماراً ستكون في غاية النضج، ثماراً تخرجها من الحيرة والاضطراب المنهجي إلى الاهتمام للتي هي أقوم، ومن الكلام عن العلم إلى الكلام بعلم، ومن السير الفردي -فردياً كان أو مؤسسياً- إلى السير الجماعي المنسق المتكامل، ومن المواجهة الانفعالية الآنية -التي لا ينقصها حسن الظن- إلى التوجهات الإستراتيجية الشاملة التي لا يشوبها -وإن بعدت الشقة- سوء الظن. وعلى الناشئة من الباحثين بعد الله تعالى المعول: أن يؤثر الأجلة على العاجلة، ويسلكوا الطريق على وعورته صابرين محتسبين".

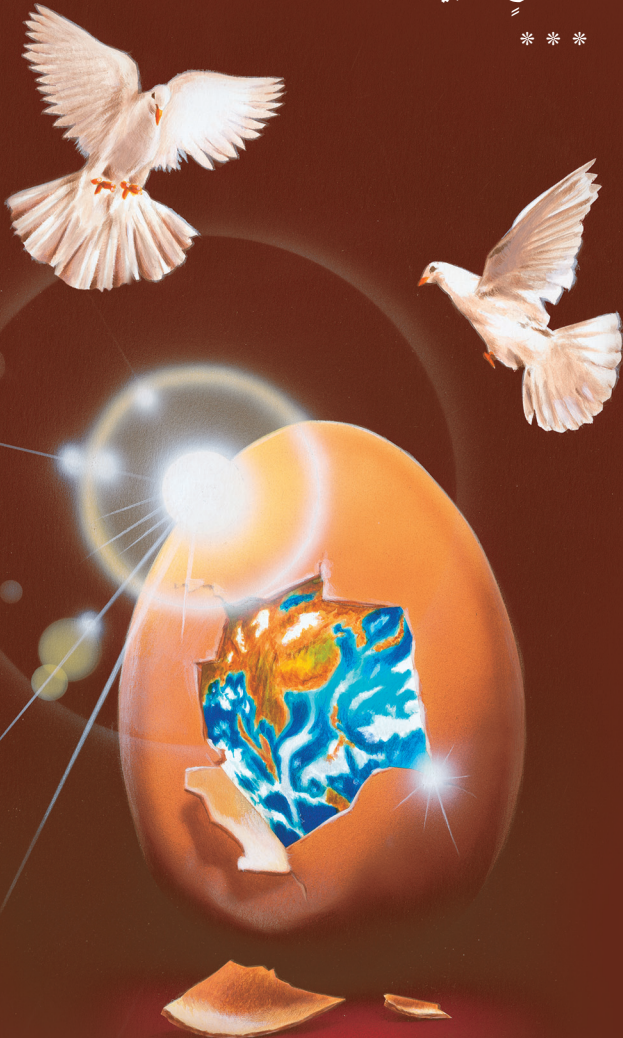




## بشائر عالم جديد

نَقَفَ الوليدُ قِشرَ الوجود،  
وجناحيه على الدنيا نشر،  
ثُمَّ علَا وارتفع...  
مصدقًا بشري نبي،  
وصالحٍ وولي..

\*\*\*



## خاتمة في المقترحات

وأحسب أن أهمها خدمة لما نحن فيه، سبعة:

- ١- إنشاء "بنك الأمة" للمعلومات، يخزّن فيه كل ما يتعلق بالأمة كلاً أو بعضاً، في الداخل والخارج، ذاتاً وظرفاً ومجالاً.
- ٢- إنشاء "مركز الأمة" للتوثيق، يخصص لجمع الوثائق عن الأمة وتصنيفها وتيسيرها للباحثين، ذاتاً وظرفاً ومجالاً.
- ٣- إنشاء "مكتب الأمة" للتنسيق، يخصص لربط العلاقات بين الباحثين والمهتمين بواقع الأمة أفراداً ومؤسسات، وتنسيق جهودهم، ودفعهم إلى التكامل فيما بينهم في خططهم ومشاريعهم وإنجازاتهم.
- ٤- إنشاء "مجمع الأمة" الفقهي، يخصص للنظر في "فقه واقع الأمة"، وما يلزم للتمكن منه والانتفاع به. ويكون من أئمة الأمة في فقه الدين وفقه الواقع وفقه التنزيل.
- ٥- إنشاء مجلة "لسان الأمة"، تخصص للبحوث العلمية المنهجية المتخصصة في فقه واقع الأمة.
- ٦- إنشاء "دار الأمة"، تخصص لنشر البحوث القيمة المتعلقة بفقه واقع الأمة.
- ٧- إنشاء "جائزة الأمة"، تخصص لأكثر الناس خدمة للأمة، وأكثر البحوث نفعا في فقه واقع الأمة. ■

(١) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

### المراجع

- (١) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار القلم، دمشق، والدار السامية، بيروت.
- (٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط ١، ١٩٩٩م، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٣) نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية، بحث قدم في ندوة "القرآن المجيد وخطابه العالمي"، كلية الآداب بأكادير بالمغرب، بتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، في تاريخ ١٤-١٩/١/١٤١٨هـ الموافق ٢١-٢٦/٥/١٩٩٧م.
- (٤) البحث العلمي في التراث ومعضلة النص، عرض ألقى في ندوة "تحقيق التراث المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق"، المنظمة بكلية الآداب بوجدة تكريماً للأستاذ محمد بن شريفة، في تاريخ ٩-١٠-١١ نوفمبر ١٩٩٥.
- (٥) نظرات في المصطلح والمنهج للشاهد البوشيخي، ط ١، ٢٠٠٢، فاس.
- (٦) مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم، ضمن ندوة "المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم".





## جمال الفكر

جمال الفكر لدينا  
يسمو بالروح حيناً،  
ونقاء القلب في طهر  
من نور الله فينا...  
نحن اللذينا،  
آمنّا برب العالمينا،  
والتقينا على درب الهدى  
نشر الخير والتقى،  
نشر صلاحاً وبرّاً،  
وبشراً ورياحينا،  
من نور الله فينا...  
يشرق القلب يقينا،  
فتسمو الحياة،  
ويحلو الثبات،  
على هدى  
خير المرسلين...  
نحن الهدى،  
خط مساره فينا...

وقلنا للدنيا الدنية،  
بمفاتها وهواها:  
نحن جيل يوسف  
شباب استعصم  
بالصلاح عرفنا،  
غرفنا من التقوى  
حتى ما عاد للشيطان  
نصيب فينا...  
نملأ الأرض إيماناً،  
نملؤها يقيناً،  
نحب في الله فالحب  
شيمة كل المسلمين...  
لا نرتضي منكراً،  
ولا نحمل ضعيفاً،  
نكد ونعمل في جهد واجتهاد،  
ونحن موقنينا  
أن الله هو خير الرازقين...

(\*) كاتبة وأديبة مغربية.





# التلسكوبات

## عيون على السماء

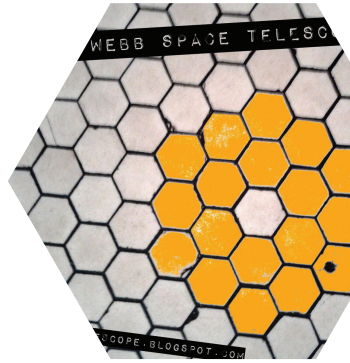
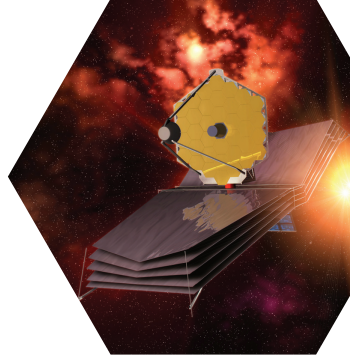
إن عام ٢٠٠٩م، سنة فلكية تعيد لنا ذكرى ٤٠٠ سنة منذ أن وجه "جاليليو" منظاره إلى السماء، والتي أحدثت ثورة علمية في الفلك لا تزال نعيش آثارها حتى يومنا هذا. فقد عرف الإنسان منذ القدم -بحبه لمعرفة ما حوله رغم اختلاف الدوافع في ذلك- دافع المعرفة وتسخيرها لخدمة البشرية، أو دوافع حب جمال الأجرام السماوية في قبة السماء. ولكن "جاليليو" أحد مؤسسي علم الفلك الحديث والذي أهدى إلى البشرية ما يتسع للخيال، كان أسير الإقامة الجبرية في منزله لمعارضته أفكار الكنيسة وقتذاك؛ في أن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض، وأن الأرض تدور حول الشمس، وهذا قبل أن يصاب -بعد ذلك- بالعمى رغم أنه أول من شاهد الجبال والفوهات على سطح القمر، وأول من اكتشف أربعة من أقمار المشتري وعدداً من النجوم التي لا ترى بالعين المجردة. وقد قال "جاليليو" واصفاً حالته تلك: "إن هذا الكون وهذه الأرض وهذه السماء التي كبرت أبعادها مئات ألوف المرات، أكثر مما اعتقده حكماء العصور السابقة، بفضل اكتشافاتي العجيبة وبراهيني الواضحة، قد بات مقصوراً -بالنسبة لي- على الفضاء الصغير الذي تملؤه حواسي الجسيمة".

ولد جاليليو في "بيزا" الإيطالية عام ١٥٦٤م، قام خلال حياته بأعمال علمية قيمة حتى وفاته عام ١٦٤٢م. ومن هذه الانطلاقة بدأ تسابق العلماء في اكتشاف الطرق التي يستطيعون من خلالها سبر أغوار الكون، فتعددت أساليب الرصد وطرق استكشاف الفضاء؛ فهناك المراصد المرئية والراديوية، والمراصد بالأشعة المتعددة في الطيف الكهرومغناطيسي، بالإضافة إلى مراصد فضائية تنطلق في الفضاء الخارجي لاستكشاف الأجرام الدقيقة في الفضاء الفسيح.

### التلسكوبات الفلكية

جاءت الحاجة إلى التلسكوبات، لتلبي رغبة الإنسان في تطلعه للكمال واكتشاف أسرار الكون. فمن المعلوم أنه لا يمكن لقزحية العين أن تتسع أكثر من ٨ مم، وبالتالي لا يستطيع الإنسان أن يرى الأجرام السماوية البعيدة أو يرى بعضها بضوء خافت، لذلك تتطلب التلسكوبات الفلكية أن تكون ذات قدرة عالية لتجميع الضوء، ومن ثم أن تكون بأقطار كبيرة. فالتلسكوب الذي قطر مرآته ٧٨ مم، يستطيع أن يجمع قدرًا من الضوء يزيد ١٠٠ مرة عن القدر الذي تستطيع العين البشرية أن تجمعه. وبالتالي يستطيع هذا التلسكوب أن يقوم برصد النجوم التي يقل ضوءها ١٠٠ مرة عن ضوء أضعف النجوم والتي يمكن أن تراها العين البشرية. ويبلغ قطر التلسكوب الموجود في "مونت بالومار" بولاية كاليفورنيا الأمريكية خمسة أمتار، ويستطيع هذا التلسكوب تجميع ما يزيد على عدة ملايين من المرات على ما تستطيع العين البشرية تجميعه.

وقد تم تصنيف التلسكوبات إلى نوعين وفقاً لطريقة تجميعها للضوء الصادر من الأجرام السماوية؛ فتم تصنيفها إلى التلسكوب العاكس وهو النوع الأكثر شيوعاً الآن، والتلسكوب الانكساري صاحب التكلفة العالية، كما هناك تلسكوبات أرضية وأخرى فضائية.





ومن أشهر التلسكوبات الفضائية، تلسكوب "هابل" الذي ينسب إلى العالم الفلكي "أدوين هابل". أطلق في أبريل ١٩٩٠م بواسطة المكوك الفضائي دسكفري الأمريكي، ويبلغ طوله ١٥,٩م، عرض قطر مرآته ٤,٢م، ووزنه ١١,١١٠ كغ، والعمر الافتراضي له ٢٠ عامًا، وقد أجري له قريبًا ترميم بواسطة المكوك الأمريكي أتلانتيس، ويعمل بالطاقة الشمسية بطاقة مقدارها ٢٤٠٠ واط، يُتم دورة كاملة حول الأرض في ٩٧ دقيقة، وسرعته ٢٨٠٠٠ كم في الساعة، ويدور على ارتفاع ٥٦٩ كم فوق سطح الأرض، ينتج من ١٠ إلى ١٥ غيغا بايت من الصور والبيانات العلمية كل يوم، وقد التقط أكثر من ٧٠٠ ألف صورة خلاصة لسُحُب ضخمة من الغاز المضيء ومجموعة متنوعة من المجرات والأجسام غير المألوفة، ولولادة النجوم وموتها. وقد كان له أثر كبير على أفكارنا ونظرتنا إلى الكون، خاصة بعد اكتشاف "هابل" -بعد مراقبته للمجرات قرابة نصف قرن- تم اكتشاف أن المجرات تتباعد عن بعضها البعض، وهذا ما يعني أن الكون في تمدد. وإثبات تمدد الكون ليس بالأمر السهل، ولكن مع الأيام تبنى أكثر العلماء هذا الاكتشاف، وأصبح الآن جزءًا من الحقائق العلمية. وهذا الكشف أدى إلى تبين نظرية الانفجار العظيم، التي يعكف علماء العصر الحديث على دراستها. وكل ذلك أدى إلى تغير النظرة إلى الكون من كون ساكن أبدي إلى كون بدأ خلقه من زمن بعيد. وهذا ما أخبرنا به الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

وهناك تلسكوبات أخرى أطلقتها كل من روسيا وأوروبا واليابان، كما سيتم مستقبلاً بناء تلسكوب "ماجلان" العملاق، وهو تلسكوب أرضي سوف يتم الانتهاء من إنشائه في عام ٢٠١٨م. وهو يتكون من سبع قطاعات رئيسية بقطر ٨,٤م (٢٧,٦ق) بدقة تصوير مرآة رئيسية قطرها ٢٤,٥م (٨٠,٤ق)، وإجمالي مساحة سطحها ٢١,٤م (٧٠,٢ق). ومن المتوقع أن تصل قدرة التلسكوب الجديد، أربع أضعاف التلسكوبات القائمة حاليًا. وفي وكالة الفضاء ناسا حاليًا، يعمل على إعداد وتجهيز منظار "جيمس ويب" الفضائي العملاق لإطلاقه في ٢٠١٣م، ليجري متابعة واختبارات للكون المحيط بنا من وراء القمر.

ومع تقدم العلم، راح يحلم كل فلكي بتكوين تلسكوب

بقطر ١٠٠م، وبالتالي يكون من الممكن تصوير كواكب شبيهة بالأرض خارج المجموعة الشمسية بعد ٧٥ سنة ضوئية أو أكثر، ودراسة غلافها الجوي للكشف عن إمكانية وجود الحياة عليها. وهذا التلسكوب سيساعد في اكتشاف نجوم تبعد أكثر من ١٢ بليون سنة ضوئية، ومراقبة ولادة مجرات تبعد حوالي ١٠ بلايين سنة ضوئية. وكم ستفتح للبشرية من أبواب للمعرفة عندما يتحقق هذا الحلم.

### لأسلافنا دور

شهد العصر العباسي نموًا في الحضارة الإسلامية وبالأخص تطور علم الفلك. فإبان هذا العصر، تم إنشاء عدد من المراصد الأرضية في دمشق ومصر وسمرقند، كما طور علماء المسلمين أداة "الأسطرلاب"؛ وهي آلة دقيقة تصور عليها حركة النجوم في السماء حول القطب السماوي. وتستخدم هذه الآلة لحل مشكلات فلكية عديدة، كما تستخدم في الملاحة وفي مجالات المساحة. وتستخدم -إضافة إلى ذلك- في تحديد الوقت بدقة، ليلاً ونهارًا. وقد اهتم بها المسلمون اهتمامًا كبيرًا، واستخدموها في تحديد مواقيت الصلاة، كما استخدموها في تحديد مواعيد فصول السنة.

ووجه الأسطرلاب يحتوي على خريطة القبة السماوية، كما يحتوي على أداة تشير إلى الجزء المنظور من القبة السماوية في وقت معين. وقد رسمت القبة المنظورة على وجه الأسطرلاب المسطح بطريقة حسابية دقيقة، وهي الطريقة ذاتها التي استخدمت في رسم خريطة العالم (الكرة الأرضية) على مساحة مسطحة. وهذه الطريقة تسمح بتحويل الدوائر من أشكال كروية إلى أشكال مسطحة دون أي تغيير للقيمة الحقيقية للزاوية، التي ترسم بين خطين على الشكل الكروي. وقد اشتهر بصناعة الأسطرلابات، علماء فلكيون كثيرون، منهم: حامد بن محمد الأصفهاني، وأحمد بن حسين بن باسو، وأبو حامد أحمد بن محمد الصاغاني. وكل ما تم ذكره يدل على أن علم الفلك، تمتع بمكانة مرموقة بين العلوم الأخرى، وحاز اهتمام الإنسان -وما يزال- في مختلف العصور والأزمان بشكل كبير. ■

(٤) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.





حفل تكريم الأستاذ الدكتور محمد عمارة

## مصر.. ومصير الأمة المرتقب من جمال حمدان إلى فتح الله كولن

ومبتدئاً يلحقه الخبر، فقال لا خفر الله له ذمة: "إن ما تحتاجه مصر أساساً إنما هو ثورة نفسية، بمعنى ثورة على نفسها أولاً، وعلى نفسياتها ثانياً، أي تغيير جذري في العقلية والمثل وأيديولوجية الحياة، قبل أيّ تغيير حقيقي في حياتها وكيانها ومصيرها... ثورة في الشخصية المصرية، وعلى الشخصية المصرية... ذلك هو الشرط المسبق لتغيير شخصية مصر وكيان مصر ومستقبل مصر".

ثم إن "فتح الله كولن" وهو يعالج "القضية الكبرى لأمتنا"<sup>(١)</sup> معالجة الطبيب الماهر الفطن، يحرص على إظهار

هما عقْدان من الزمان، ما بين وفاة الأول شهيداً، وزيارة الثاني شاهداً؛ والحق أن "حمدان" لم يمت، وإنما غادر المكان بجسده ليس إلا، والتحقيق أن "فتح الله" لم يطأ أرض مصر برجليه، لكن روحه اليوم تُرفرف على سفوح النيل، وإنّا لنراها رأي العين ونتملّى جمالها وجلالها عين اليقين.

ولقد كتب "جمال حمدان" في "شخصية مصر" وعن "شخصية مصر"<sup>(٢)</sup> لكأنه يخطُ كلماته الآن والساعة، لا "مصر البلد" وحده، بل "مصر" عنواناً للأمة يعقبه المتن،

هر





ندوة "أجيال الأمل والفجر الجديد: محاوراة صادقة مع الأستاذ فتح الله كولن"



نوزاد صواش - د. محمد باباعمي

### حفل تكريم الأستاذ الدكتور محمد عمارة<sup>(٣)</sup>

ففي القاهرة، عند الحرم المبارك لمدرسة "صلاح الدين" الرائدة،<sup>(٤)</sup> كان لـ "مجلة حراء" عرسٌ بديع، ويومٌ سعيد؛ كَرِّمت فيه رجالاً جبلاً، وعالماً شهماً، وعنواناً كبيراً على صفحات الأُمّة الناصعة... رجالاً جمع إلى العلم الرصين العقلَ الحصيف، وأضاف إلى الفهم السديد الخلقَ الحميد، ثم إنه شدَّ القلوب إليه قبل العقول، ولقد كان -والله- للعقول مُرشداً نصوحاً، وللحقِّ داعية صدوحاً.<sup>(٥)</sup>

إنه الأستاذ المفكر الدكتور محمد عمارة، المتفرِّغ للتفكير والتأليف لعدة سنوات، الناشر لما يقرب من ثلاثمائة عنوانٍ في مختلف الفنون... كلُّ عنوان -حسب تعبيره- "وليدٌ جديد"، وكلُّ كتاب "مولودٌ سعيد".

أمّا مناسبة التكريم، فهي صدور كتاب له مناسبٍ للسياق والظرف، متناغمٍ مع الواقع والمأمول، يكفي أن يكون عنوانه: "روح الحضارة الإسلامية"، ثم يكفي أن يكون منشوراً بعناية، مقالاً مقالاً في مجلة حراء لسنوات متوالية متتالية، وها هو اليوم يكتمل مبنى ومعنى، ويهلُّ على الناس مريعاً<sup>(٦)</sup> ومغنى.<sup>(٧)</sup>

### وللشباب نصيبٌ غير منقوص<sup>(٨)</sup>

على جانب الحدث الكبير وفي ذات القاعة البديعة قُبيل ساعاتٍ، كان لطلبة الأزهر الشريف وجامعات مصر العديدة، من شتى بلاد العالم الإسلامي الفسيح... كان لهم لقاءٌ حميم وحوارٌ صريم؛<sup>(٩)</sup> أداره الدكتور محمد باباعمي بتنشيط من الأستاذ نوزاد صواش، وقد اختير له عنواناً: "أجيال الأمل، والفجر الجديد: محاوراة صادقة مع الأستاذ فتح الله كولن".

كان فحوى هذه المداخلة المفتوحة أن "صلاح الدين" الرمز، و"صلاح الدين" الجيل، حاورا الأستاذ فتح الله كولن بلا

عُسر المهمة وصعوبتها، ثم هو يؤكد على وجوب الإيمان واليقين في تحقيق نُصرتها، ويقول لا أضاع الله له أجراً: "وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة، بل الإفادة بأن بلوغ برِّ الأمان عسيرٌ غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل: الحرص، والكسل، وطلب الشهرة، وشهوة السلطة، والأنانية، والميل إلى الدنيا... وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، وما لم نتوجّه إلى الحق بما يُعدُّ جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء، والجسارة، ونكران الذات، والاهتمام بهم الآخر، والروحانية، والربانية... وما لم تتمَّ تصنيفتنا بمشاعر الحق ثم نصبٌ في قلبه... لكن العسر الشديد لا يعني المحال".

فما هو الشرط وما هو السبب لتحقيق ما وجّه إليه حمدان، وما بشر به فتح الله؟ الشرط الأساس والسبب الرئيس، هو أن "لا تخلو الساحة من شجعان، مالكين لإرادة تجديدية تحتضن العصر، مع الحفاظ على الجوهر واللب". وما هي الصبغة الأمثل، والصوت الأوضح، القمين بهذا التغيير المرتقب، والفجر المنتظر؟

لا ريب أن هذا التجدد وذلكم التغيير، لا بد أن يكون "ذا أبعاد قرآنية، وسجاياء فطرية"، لا يكفر بالأولى مهما فُتن، ولا يتنكر للثانية مهما امْتَحَن.

بهذه المعاني الصداحة، ولأجل هذا الغد الوضاء، حطّت "حراء المعنى" رحالها لأيام معدودات، على أرض مصر، تنقّلت خلالها ما بين القاهرة والإسكندرية، وزارت محافظة "بني سويف" على إثرهما، ذلك أن مفهوم "المنطقة النائية المعزولة" قد نُسخ من قاموس "الخدمة" منذ أمد بعيد... إذ كلُّ شرٍّ بعيدٌ ولا بد... وكلُّ خير قريبٌ ولا غرو...



ولم تغب عن الحفل الجهات الرسمية الوطنية والمحلية، وبخاصة ممثلو وزارة التربية، والإدارات المحلية المشرفة على التربية والتعليم في مصر بنوعيه الخاص والعام؛ كلُّهم كان لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكِرًا، وأملًا مشرقًا، ودعاء ملحًا: أن يحفظ الله مصر وسائر بلاد المسلمين، وأن يَمَكِّن لهذه التجربة المحيية من الانتشار في سائر المحافظات، بخاصة ما كان منها في الجنوب.

### القضية الكبرى لأمتنا: ندوة في مكتبة الإسكندرية

في المدخل الرئيس لمكتبة الإسكندرية نقرأ مكتوبًا على لافتة عريضة: "ندوات حراء، الإسكندرية"، ثم يجذبنا عنوان الندوة بخطٍ عريض: "القضية الكبرى لأمتنا: من الإنسان الأفق إلى المجتمع المثالي". ولقد كان الحضور كثيفًا، والاهتمام بليغًا، والحدث مهيبًا، استغرقت فعالياته أزيد من ثلاث ساعات بإدارة وفيّة من قبل الأستاذ الدكتور صلاح سليمان مستشار مدير المكتبة، الذي أرشد ونبه وقال فيما قال: "لقد قرأت جميع ما وصل بين يدي من كتب الأستاذ فتح الله كولن، فألفيتها علامة في الحضارة، وأساسًا متينًا للغد المرتقب". ثم أشار إلى أن "مكتبة الإسكندرية تأخذ على عاتقها الجانب الإصلاحي في كل مناحي الحياة، من العلم والمعرفة إلى الثقافة المسؤولة وبناء الإنسان، من خلال عدد كبير من البرامج والمشروعات، وبالتركيز بشكل خاصٍ على الشباب". وفي هذا الإطار تأتي هذه الندوة، وبهذا النفس تُعقد الآمال في تجربة "فتح الله كولن" الرائدة.

ثم إن الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، هزَّ عتبات المنبر في القاعة الكبرى من المكتبة، وفصَّل أن يضع التحليل الفلسفيَّ المدرسيَّ جانبًا، ليلوذ بالتعبير الوجداني البللوري

حدود ولا قيود، وسألاه عن "التفاؤل والتشاؤم"، وعن "المرحلة والدَّور"، وعن "المنطلق والغاية"... سألاه عن كل ما يعني الأمة أو أن فجرها الصادق، وحين نهضتها المنشودة... فما كان من "فتح الله" إلا أن أجاب ببيان، وكشف بتبيان،<sup>(١)</sup> ومما قاله: "إن تقدُّم الأمة إلى الأمام أو تراجعها إلى الوراء وانحطاطها، مرتبطٌ بالتربية والروح والشعور الذي تتشربُه أجيالها الشابة. فطريق التقدُّم مفتوح دومًا أمام الأمم التي تعدُّ شبابها إعدادًا جيدًا. أمَّا الأمم التي تهمل شبابها، فلا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام".

فهل يا شباب محمد ﷺ، ويا أمل الغد السعيد... هل أنت مستعدٌّ متحفِّزٌ متوقِّفٌ؟! ذاك ما يثبته مستقبل الأيام أو ينفيه، ولا نخاله بحول الله إلا مُثَبَّتًا.

### فتح مدرسة "صلاح الدين" في "بني سويف"

جاء الدور الحضاري العبقري الذي يرسم علامةً فارقةً وماركةً مُسجَّلةً على جبين "الخدمة"، في أكثر من مائة وستين دولة من دول الشمال والجنوب... إنه فتح حصنٍ للتربية جديد، وإعلان معقلٍ للخير حديد.<sup>(٢)</sup> هي "مدرسة صلاح الدين" الثانية في محافظة "بني سويف"، جاءت تتمَّة لـ "صلاح الدين" الأولى في القاهرة... ولقد تناقلت الوفود بُشْرَى اقتراب بزوغ أخوات لهنَّ: في سوهاج، وماريوتي، والإسكندرية... وغيرها.

ومرَّة أخرى حضر الحفل البهيج، مفتي الديار المصرية العلامة علي جمعة، وألقى كلمة مما جاء فيها: "إن هذه المدرسة بؤرة جديدة لنور، سيتمدُّ بحول الله نحو الآفاق... فهي اليوم واحدة، ثم اثنتان... وهي بعد أمد قريب -بعون من الله- ستكون عشرة، بل عشرين... وما ذلك على الله بعزيز، ولا على همَّة الرجال بمستحيل".





د. محمد عبد الله الشرقاوي

ديناً وعقيدةً، وعبادةً وخلُقاً، ومعاملاتٍ وحركةً... أي في الدين حين يكون كلاً، لا حين يكون كلاً.

وذكر الدكتور محمد باباعمي مدير معهد المناهج بالجزائر وباحثاً بأكاديمية البحوث في تركيا؛ وهو يعرض قصته في تأليف كتابين اثنين عن الأستاذ "فتح الله" وعن نموذج "الخدمة": "البراديم كولن"، و"أرباب المستوى" من نشر دار النيل، ذكر أن لـ "مصر" في جغرافية الأمة مقاماً ساماً ومكاناً رائعاً، فهي بمثابة القلب من الجسد، فإن تسارع إيقاع نبضها نشطت الأمة من عقالها، وإن تباطأ أو خفت -لا قدر الله- دبَّ على أطراف الأمة قاطبةً غفريتُ الكسل والخمول والتخلف... ثم عرض المحاضر سؤال الأزمة، الذي بسببه كانت "الخدمة" نموذجاً بديلاً، وهو:

"لماذا فكرنا لا يتحوّل إلى واقع، ولماذا واقعنا لا يضرب بسبب في فكرنا؟ ثم كيف نفسّر كون فكر "فتح الله" يغمر المجتمع ويصير حقيقةً وعياناً؟ وبماذا نعلل ارتباط مؤسسات ومشاريع "الخدمة" بالفكر، وانطلاقها من أرضية الإيمان والإتقان والإحسان، تحت مظلة العقل والقلب والشعور والفيوضات والوجدان؟".

فكانت محاولة الجواب عن سؤال الأزمة من قبل "فتح الله" ومشروع "الخدمة"، بمثابة تحوّل في "البراديم/النموذج"، ثم مع الوقت تشكّلت على صورة "النموذج البديل" وهو بديل عن "النموذج المهيمن" بمختلف أشكاله وألوانه... ولا يعني هذا بتاتاً أنه نموذج ناقد أو منتقم من التجارب الأخرى، وإنما هو نموذج يعترف أنه مرحلة في حلقة، ولبنة في صرح، وذرة في شمس... و"الخدمة" بهذا، تؤمن بالتراكم لا بالإقصاء؛ فهذه أكبر خاصية من خصائصها الفكرية والحركية، وأدق صورة من صور "نماذجها الإدراكية التفسيرية الكامنة" بتعبير ابن مصر



مصطفى أوزجان

الناصح، شاهداً صادقاً، وناصحاً أميناً، ومرشداً خريئاً... فأشار إلى أن مشروع "فتح الله" استطاع أن يُنزل المثل الإسلامية إلى أرض الواقع، وهو يتّسم بأعلى معايير الجودة والالتزام والتنظيم، ثم عرّج إلى مدلول "التلطف" في فكر الأستاذ، وما له من آثار حميدة على الإيقاع وضبط المسير. من ذلك أنه لا يستعدي الآخر ولا يستفزه، فهو نموذجٌ منطلقة الفهم الصواب للإسلام، ومصّبه الإدراك البصير لحقيقة الإنسان.

ثم كان الدور للأستاذ مصطفى أوزجان المستشار لمجلة حراء؛ الذي عالج بذهنية الطبيب الحاذق، وبروح المجاهد المجهتد الواصل لما أمر الله به أن يوصل، والقاطع لما أمر الله به أن يُقطع؛ ليشدّ بجبلٍ وثيق بين القلب والعقل، وليربط بميثاق غليظ بين العلم والعمل، وليحذّر ويُنذر من أن النهضات والحضارات لا تبدأ من السياسة ولا من الاقتصاد... لكنها -كما هو مأثور عن رسول الله ﷺ- تنطلق من "الأغوار السحيقة للقلوب"، وتضمن النفاذ باعتماد "تأثير الوجدان" سفيراً ورسولاً... ثم إنه ﷺ تناول الإسلام كلاً متكاملًا غير ممزّق ولا مشتّت، ولهذا كان النصر حليفه في أمَدٍ قصير، وبلغ الدينُ الحنيف على يديه الشريفتين آفاقاً لم يبلغها أيُّ دين آخر، ولم تحلم بها فلسفة ولا أيديولوجية من قبل، ولن تحلم بها من بعد.

ولقد ابتليت البشرية لقرون ثلاثة متوالية -كما أشار الأستاذ مصطفى- بنزعات ونزوات، مثل الأنانية والفردية والمادية والعنصرية والنفعية والوضعية... كلّها حلّبت للعالم سماً زاعفاً، وورّثت البشرية حريين عالميتين قُتل فيهما مئات الملايين، وشرد ما لا عدّ له ولا حصر. ولذلك، تقف الإنسانية اليوم على مفترق الطرق، وتبحث عن المنقذ النصوح والمرشد الصدوح، وسوف لن تجده إلا في الإسلام



د. صلاح سليمان



"القضية الكبرى لأمتنا: من الإنسان الأفق إلى المجتمع المثالي"

#### الهوامش

(١) جمال حمدان: هو أحد أبرز أعلام البحوث الجغرافية والحضارية في العالم، ولد سنة ١٩٢٨، وتوفي سنة ١٩٩٣، وترك حوالي ٢٩ كتاباً، و٧٩ بحثاً ومقالاتاً، وهو رمز من رموز الفكر في مصر المعاصرة. أما كتابه "شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان"، فهو أشهر كتاب عن تاريخ مصر وعن علاقة الإنسان بالحضارة؛ نشر عدة مرات في أربع مجلدات، وهو يتجاوز العرض المعلوماتي الوصفي التقليدي إلى التحليل الحضاري المستقبلي النماذجي.

(٢) في كتاب "نحن نقيم صرح الروح" نطالع مقالاً للأستاذ فتح الله كولن بعنوان "القضية الكبرى لشعبنا"، منه استقينا عنوان الندوة التي أقيمت في مكتبة الإسكندرية.

(٣) حفل الحفل ثلة من العلماء ورجال السياسة وجوه البلد؛ على رأسهم مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة، وكذا السادة الأفاضل الأستاذ مصطفى أوزجان، والدكتور عبد الحميد مذكور... وغيرهم كثير يضيق المقام من حصرهم اسماً اسماً.

(٤) مدرسة صلاح الدين الدولية: هي أول مدرسة من مدارس الخدمة فتحت في مصر، وذلك عام ٢٠٠٩. وهي الآن من الثلاثة الأوائل في ترتيب المدارس الدولية الخاصة في مصر، موقعها في مدينة "مصر الجديدة"، وهي تحفة في الجودة والعمارة، وآية في الإتيان والجمال.

(٥) صدح الرجل، وهو صدّاح وصدّوخ: رفع صوته بغناء أو غيره.

(٦) المَزْبَع: الموضع الذي يقام فيه زمن الزبيع خاصة.

(٧) المَعْنَى: المَنْزِلُ الذي غَنِيَ به أهله ثم طَعَنُوا.

(٨) حفل الحفل ثلة من العلماء ورجال السياسة وجوه البلد؛ على رأسهم مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة وغيرهم من السادة الأفاضل.

(٩) أمر صريم: مُعْتَزَمٌ؛ والصَّريمةُ إِحْكَامُكَ أَمْرًا وَعَزْمُكَ عليه.

(١٠) منه حديث نبينا محمد ﷺ: "أَعْطَاكَ اللَّهُ التَّوْرَةَ فِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ"، أي كَشَفَهُ وإِبْصَاحَهُ.

(١١) الحديد هو النافذ، قال تعالى: ﴿فَبَصُرْنَا الْيَوْمَ حَدِيدًا﴾ (ق: ٢٢)، أي فرأينا اليوم نافذ.

(١٢) القُمري: من أشهر الطيور في مصر، وهي مضرب للمثل.

الوفاي المرحوم عبد الوهاب المسيري، عليه شآبيب الرحمة. وجاء مدير "مجلة حراء"، الأستاذ نوزاد صواش ليحمل الناس في رحلة بالصور الموحية، وبالتعليق اللطيف الخفيف، إلى مدارس "الخدمة" في تركيا وفي شتى بلاد العالم. فكان عرضُه مصادقة لما قيل، وتصديقاً لما قرّر، وحملاً للناس على التفكير الجدّي في اقتحام العقبة بلا خوف ولا تردّد، ودفعهم إلى الثقة بالنفس وبمقدّرات هذه الأمة بلا مواربة ولا مختالّة... ومما قاله: "إن مدارس الخدمة تصوغ المثال، لا لتستأثر به لنفسها، ولكن لتعرضه على مصر وعلى باقي بلاد العالم والمسلمين، لينظروا فيه ويقوّموه ويطوّروه... فهي بذلك ستنتفخ مما رزقها الله من خبرة ومعرفّة بسخاء دون حدود... وهذا بعينه معنى بليغ من معاني الخدمة، وقانون ثابت ضمن القوانين والمقاصد التي سطرها "فتح الله" بفكره ومهجته". وبعد الحوار والأسئلة التي بلغت المئات، دليلاً على الاهتمام الحصيف، وتنبهها إلى المقام المنيف، وعنواناً على الهمّ الملتهب بين ثنایا القلوب الضارعة، المتعلّقة بمصر بلداً وشعباً، وبمصير هذه الأمة حضارة وديناً... بعد هذا الحوار تبادل الطرفان الهدايا السخية وكلمات الشكر الندية.

ثم ما لبث سربٌ من طيور القُمريّ<sup>(١٢)</sup> يصقّق بأجنة سوداء وبنية وبعضها جوزيٌّ مذهّب، ويعلن للعالمين بُشرى تعلّق قلب بقلب، وفؤاد بفؤاد، وروح بروح؛ وأعجب لفردٍ من السرب مكث مني غير بعيد، وهو يترنّم بصوت عذب لا أزال أجد رجعه في أذني... ويتغنى بآية من آي الكريم الحكيم تالياً: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ \* وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢-٦٣). ■

(١٢) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.





# "فلسفة البناء الحضاري"

بين يدي "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"

وأفكاره بهذه الروح، وتلظت بذلك ندوة "حراء" الفكرية بجذوة الإيمان الوازع، والعلم النافع، والعمل الرافع.

ندوة حراء بالجزائر: عقيقة فكرية وسياحة معرفية

في قاعة "كوسموس" برياض الفتح بالجزائر العاصمة أمسية "الثامن عشر" من نوفمبر ٢٠١٢، غصت القاعة بالحاضرين، ورفلت الجُموع في سماء الفكر والروح، وألقت في أفلاك الحكمة والفطنة، متعلمة ومتعلمة: لتتاج فكري مصطل من قبس الأستاذ "فتح الله" دارسين ومحللين، مقلبين ومُنقّبين عن أسباب الانطلاق، وقواعد الاعتقاد؛ فكانت سياحة فكرية حقّة مع الدكتور "سليمان عشراي" من جامعة وهران (الجزائر)،

سطعت أنوار البشر بالجزائر المسلمة لبًا وروحًا، الثائرة ذاكرة وتاريخًا، والعثمانية نفسًا وعقبًا، فانبج بها فجر صادق بعد أن حلّ بها ثلة من أعلام الهدى، قادمين إليها من أفق ممتد من "جاوة" إلى "مراكش" ومن "طنجة" إلى "جاكرتا"... حاملين إلى "الجزائر" أفكارهم وإشراقاتهم، مشاركين إياها آمالها وأحلامها، بأشواقهم القلبية والروحية؛ يعتون بفيض علمهم وطيب حلمهم، طالب العلم والباحث عن الحقيقة توجيهًا وتعليمًا وترشيديًا... فاصطبغت أيام مؤتمر "فلسفة البناء الحضاري" عند "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن" وأوراقه

س





د. عمار طالبي



د. طاهر حجار



د. سليمان عشارتي



د. سليمان الدقور

ومعرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن... فكانت "ندوة حراء في الجزائر بذلك عقيقة معرفية دسمة لكثب مواليد، تعانق فيها العقل والإيمان، والفكر والوجدان في سماء "الجزائر".

**"فلسفة البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"**

على مائدة فكر متبصر أصيل فرشها عالمان صنوان، ومفكران أخوان، لم يلتقيا ولم يجتمعا، لكنهما معين القرآن تشربا، ومن جذوة الحبيب المصطفى اصطليا، ومن فيض الحكمة الحضارية غرّفا... إنهما عالمان غريبان عن بعضهما موطنًا



ملتقى "فلسفة البناء الحضاري عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"



ندوة "سياحة معرفية في عالم الأستاذ فتح الله كولن"

وجسداً، إلا أنهما يمثلان في ذاكرة الأمة الحصن والحرم، وفي صرح البناء الحضاري الشامة والمعلم، وفي ساح ترشيد الفكر والفعل الهامة والعلم... على هذه المائدة فكّحت أرواح وقلوب كانت عطشى، وأفئدة لغد أفضل صارت ظمأى، فكان لها محراب الأستاذ "مالك بن نبي" وجذوة الأستاذ "فتح الله كولن" "الصفا والمروة" والمروى.

افتتح الدكتور "طاهر حجار" رئيس جامعة الجزائر المؤتمر بكلمة ترحيبية بضيوف "الجزائر"، معتبرا المؤتمر لنبنة في فهم فكر الأستاذين "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"...

"الخدمة"، فأخذ الأبواب بحلمه، وفتّن الحضور بحبه ولبه... أتبع الدكتور "محمد باباعمي" المدير العام لمعهد المناهج بالجزائر هذه العبر والعبرات: قاصّا حكاية كتابين، وفكرتين، وآهتين، وأنتين: أنه حب لوطنه، وآهة وجد لفجر ولید لأمتة، وفكرة انبعثت لجيله، باحثا عن عصارة الترياق، وخلاصة المعنى في طريق الحضارة والتمكين. فانسابت المعاني رقراقة في قمطر أول عنوانه "البراديم كولن"، وانجلت بعد ذلك أمارات "أطبّاء المعنى" و"جند الإدراك" وشروطهم وخصائصهم في كتابه الثاني؛ "أرباب المستوى.. حضور





الله، وشفت عَبرَات الدكتور "مذكور" خلال حديثه، عن شخصية العالم الأواه الحليم... كما حملنا الدكتور محمد باباعمي إلى سماء الخلق الحليم محورًا للدين والحضارة، في ورقة عنوانها بـ"محورية الأخلاق في البناء الحضاري، عند مالك بن نبي وفتح الله كولن"... وقد أمتع بدوره الدكتور "سمير بودينار" من جامعة "محمد الخامس" بالمغرب الحضور بحديثه عن تقفي أثر الحكمة الحضارية في فكر العلمين... وتطرق الدكتور "سليمان الدقور" إلى موضوع "الصلوات والعلاقات" وأثرها في البناء الحضاري، متحدًا عن محورية مواجهة "الجهل"، و"الفقر"، و"الفرقة" في فكر الأستاذ "مالك وفتح الله"... وقد نقشت مداخلة الأستاذ "رشيد هيلماز" ذاكرة المؤتمرين حين ألق بحديثه عن موقع السيرة النبوية في فكر الأستاذ "فتح الله"، وكيف أن "الأستاذ" يؤكد على دراسة "فلسفة السيرة" قصد استنباط "القواعد الكلية" في البناء الحضاري عوض الإخلاد إلى قراءة سيرة "المصطفى" ﷺ بمنهج وصفي، واعتبارها سرًا لأحداث ووقائع تاريخية متناثرة... وقد شرف المؤتمر حضور عدد من كبار العلماء والمرشدين، وحاملي لواء العلم والحلم، من أقطار ممتدة من المعمورة، من "البوسنة والهرسك" إلى "السودان"، ومن "نيجيريا" إلى "أربيل" العراق.

لقد كان مؤتمر "فلسفة البناء الحضاري"، مرآة تعكس فيض المحبة في القلوب وتناغم العقول، وينم في الوقت نفسه- عن فجر جديد يلوح في الأفق. لقد خلف اختتام المؤتمر وحشة وغربة في الأنفس والألباب، إلا أنها ستستحيل -لا ريب- روضًا وسندسًا بدوام الازدياد المعرفي، وتوجيه الطاقة، وترشيد الفكر والفعل. ■

(\*) كاتب وصحفي جزائري. إعداد المادة العلمية: هيئة التحرير بفيكوس.



إثرها أسرى بنا الأستاذ "مصطفى أوزجان" المستشار لمجلة حراء، إلى معارج "الفكر الحضاري"، مؤكدًا أن بُنيانه لا يستقيم إلا بعجن طينة "إنسان جديد" يُشرق بيديه فجر وليد؛ وفي هذا المسلك السديد يجتمع الشيخ "عبد الحميد بن باديس"، والشيخ "محمد البشير الإبراهيمي"، والأستاذ "فتح الله كولن"... ولم تنقُض أنفاس الجلسة العلمية الأولى قبل أن تفيض بشهادة حيّة للدكتور عمار طالبي رئيس المجلس العلمي للجزائر العاصمة، معبرًا عن رفقة طيبة للمفكر مالك



بن نبي -رحمه الله- في سنوات خلت، ترسّمت من خلالها تقاسيم وملامح ذاكَ الرجل المتقد فكّرًا، السامي جَنَانًا رغم انتكاسات الزمان والمكان، وضعف الإمكان.

توالت الكلمات والأوراق البحثية خلال اليومين تترى، تسبح في ملكوت الفكر، وتجول في سلطنة القلوب، من مقارنة مقارنة بين الأستاذ "مالك بن نبي" والمفكر "ابن خلدون" للبروفيسور "بروس لورونس" من "الولايات المتحدة الأمريكية"... إثر هذه المداخلة تحدثت الدكتورة "فريدة بلفراق" من جامعة "الجزائر" عن الهم الحضاري والتوتر الذي صبغ فكر الأستاذ "مالك بن نبي"...

ورفل بالحضور الدكتور "عبد الحميد مذكور" من "مصر" حين تحدث عن أثر العقيدة في فكر العالمين "ابن نبي وفتح





## اليعسوب.. وتقنية طائرات الهيلوكبتر

أجرى العلماء أبحاثاً حول حشرة "اليعسوب"، فاندھشوا عندما رأوها تتمتع بتصاميم مبهرة في جسمها وجناحها، وتقنية عالية في طريقة طيرانها... وجدوا أن هذه الطائرة الحية تمتلك أنظمة طيران مذهلة، ولديها حيوية كبيرة وسرعة فائقة في المناورة والطيران واتخاذ طريق معيّن... إنها تقف في الهواء، وتطير نحو الخلف، وتمتلك قدرة الهبوط والصعود العمودي، وتحلّي بنظام رؤية خارقة.

نعم، حشرة اليعسوب تتحلّى بزوجين من الأجنحة الغشائية التي تتحرك باستقلالية تامة عن بعضها البعض، الأمر الذي يُكسبها نظامَ طيران مدهش. تطير حشرة اليعسوب بسرعة تصل إلى ٥٠ كم في الساعة الواحدة. وقابلية المناورة لديها تفوق أحدث المروحيات المتطورة لدى الإنسان، حيث تتمكن بواسطة هذه القابلية من التخلص بنفسها من الطيور والحيوانات الأخرى بكل سهولة. هذه الحشرة لها عيون كبيرة جداً تغطي معظم رأسها، وبين هذه العيون يوجد ٣٠ ألف عين دقيقة كل منها ترى نقطة معينة، فضلاً عن أن هذه الحشرة تملك موهبة خارقة في رؤية الكائنات الساكنة على بُعد مترين، ورؤية الكائنات المتحركة على بُعد يعادل ثلاثة أضعاف هذه المسافة. هذا وقد زوّدت حشرة اليعسوب أيضاً أمام عيونها بنظام يمكنها من إبقاء رأسها موازياً سطح الأرض، تماماً مثل الـ"جراسكوب" الذي يُستخدم في الطائرات، لتحديد خط أفق اصطناعي يعرف الطيار من خلاله خط الأفق الحقيقي ويحدد موقع الطائرة بعد المناورة وفقاً لسطح اليابسة وينجو من السقوط.

واللافت للنظر أنه إذا وقع أيّ تغيير في موضع جسم اليعسوب، فسرعان ما يتم تنبيه الشعيرات الكائنة بين رأسها وجسمها؛ فتقوم الخلايا العصبية في جذور هذه الشعيرات، بإرسال الإنذارات إلى عضلات اليعسوب لإخبارها عن موضعها في الهواء، عندها تقوم عضلات الأجنحة ببرمجة سرعة وعدد رفرفة الأجنحة أوتوماتيكياً... وهذا يساعدها على التحكم بجسمها، ويحفظ لها توازنها ووجهة طيرانها حتى في أصعب المناورات... وهذا النظام بحدّ ذاته أمر خارق في هندسة الطيران. قام العلماء بعد كل ما توصلوا إليه من اكتشافات حول حشرة اليعسوب، بتصميم مروحية "سيكورسكي" التي تعدّ الأولى في العالم، محاولين بها محاكاة حشرة اليعسوب الصغيرة. ■

(\*) كاتب وباحث تركي.



# حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل

شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş.

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هاني رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش الواسكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20226134402-5

الهاتف الجوال: +201004871038

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com



## التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاوّر أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيمان في تألف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والمهادن فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

## شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديداً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهية التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعتبر عن آراء كُتّابها، ولا تعتبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

### USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone: +1 732 868 0210

Fax: +1 732 868 0211

### SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع

الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966504358213

saudia@hiramagazine.com

abdallah7@hotmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

### MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ نقطة سجلحماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

### SYRIA

GSM: +963 955 411 990

### YEMEN

دار النشر للجامعات

الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،

أمام الجامعة القديمة

Phone: +967 1 440144

GSM: +967 711518611

### ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 27

### SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

### JORDAN

شركة زوزك/شمساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم: 61

عمان/الأردن.

Phone: +962 656 064 44

GSM: +962 775 935 756

hirajordan@hotmail.com

### UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

### MAURITANIA

Phone: +2223014264

# عبقرية فتح الله كولن

بين قوارب "الحكمة" وشواطئ "الخدمة"

أ.د. فؤاد البنا

- كتاب غاية في الإمتاع...
- قلم محب يجري في مسارب فكر...
- سيرة وحياة... ومجاري أقدار...
- عبقرية فرد... وعبقرية أمة...
- إشراقات حكمة على أرض الخدمة...



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر  
تليفون وفاكس : 5-20226134402 الهاتف الجوال : +201004871038

[www.daralnile.com](http://www.daralnile.com)







## طائر السعد

طائر السعد حولَ قلوبنا يحوم،  
وفي آفاق أرواحنا يحلق...  
أترانا نحلم؟ أم نتخيّل؟  
ليكن ما نشعر به خيالاً، أو حلمًا ووهماً...  
فما أجدر أن نستمد من هذا الخيال قوةً وطاقة، وهمةً وعزماً...  
وإذا كان ماضينا قد وافته رياح السعد، فعاش أعلى المثاليات...  
فَمَنْ قال إنّ هذه الريح لن تهبّ نحو حاضرتنا من جديد،  
فنسعد، وآمالنا نحقق؟!\*

\*\*\*